

روايات عبير

مارغريت بارغيتر

المفاجأة المذهلة

١٠٣

روايات عبير

HARLEQUIN — "ABIR" — No. 103

المفاجأة المذهلة

هل الرجال دائماً قساة؟ سؤال حير سوزان غريتجر طويلاً، خاصة بعد ان حملتها الاقدار لقمة سائغة لترميها بين فكي ميريك فيندلي الرجل الطاغية. منذ رأته لأول مرة شكت في امره، وتأكدت بأنه مجرد لص وداهية استولى على املاك والدها الشاسعة بأساليبه الملتوية. وها هو بأكاذيبه وألاعيبه يحاول الاستيلاء عليها كجزء من الثروة التي يحلم بها. ولكن لا. سوزان لن تدع هذا الرجل يرتاح، لن يغمض له جفن ما دامت هي على قيد الحياة. يجب ان تحاربه بكل اسلحتها. يجب ان تفضح حقيقته امام والدها الذي وثق به وسلمه مفاتيح حياته. لن ترضخ لأوامره، لن تستمع لنصائحه، لن تصدق اقواله، لن تثق بأفعاله. وستظل وراءه تتحين الفرصة المناسبة لتنقض عليه وتكشف جميع أوراقه. انه واجبها كابنة وحيدة لرجل عجوز انهكه المرض. . . وجاء اليوم الموعود، واقتربت اللحظة الحاسمة. وانكشفت جميع الأوراق المستترة. وكانت المفاجأة مذهلة!

لبنان ٨ ل.ل.	الكويت ٨٠٠ ف	اليمن ١٠ ر	السودان ٨٠٠ م
سورية ٩ ل.س.	الامارات ١١ د	تونس ١٢٥٠ د	U.K. £1
الأردن ٦٠٠ ف	البحرين ١٢٥٠ د	ليبيا ٨٠٠ د	France F 10
العراق	قطر ١٠ ر	المغرب ٩ د	Greece Drs 180
السعودية ٩ ر	عمان ١٢٥٠ ر	مصر ٨٠٠ م	Cyprus P 1.250

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
THE KILTED STRANGER

المراسلات:
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ - آنسة خارجة من التاريخ

كان ظهراً حاراً من أيام آب (اغسطس)، وأشعة الشمس الحادة تتراقص في أرجاء المطعم وعلى طاولاته المفروشة بأغطية بيضاء. لاحقتها سوزان غرينجر بعينيها الرماديتين، ولما سمعت أحد الزبائن يتذمر من وهج الشمس، لاحظت ان صاحب المطعم الشاب سارع الى اسدال الستائر فانحجب الوهج.

كانت الستائر قطنية ذات خلفية بنّية مزينة بنقوش هندسية بيضاء. بدت جذابة وجديدة بالنسبة الى سو، فاستحوذت على اهتمامها وغرقت في تأملها الى حد جعلها تنسى الرجل الذي يشاركها طعام الغداء.

«سوزان!».

هتف تيم ماسون اسمها بنفاد صبر. لكنها استمرت في تأملها ولم تفق الا حين خاطبها ثانية، فعاد بصرها المسافر يتركز بتعاسة على وجهه.

«آسفة».

غمغمت وهي تنكمش قليلا أمام نظرته الجافة. لكن وصول المضيفة بقهوتها أنقذ موقفها فشعرت نحوها بالامتنان.

كان من الخطأ ان ترافق تيم الى المطعم برغم الحاحه الشديد، فهي لا تتوقع منه ان يتفهم استرسالها في العجز عن التركيز. حادثة أمها، موتها المفاجىء وأمور أخرى، صدمتها بقوة وأوصلتها الى ما هي عليه. ذلك الزبون المتذمر... أليس غريباً ان يهبها تصرفه العادي البسيط شعوراً طبيعياً مريحاً عجزت عن اعطائها اياه كل تشجيعات تيم الصارمة وعطفه الفيّاض:

«آسفة».
كررت الاعتذار فيما راح يحرك قهوته بغضب وقال:
«لا بأس يا حبيبتي، لكن فرصة الغداء محدودة، وويلكوكس العجوز سيصاب بنوبة اذا تأخرت خمس دقائق. باستطاعتك على الأقل ان تصغي الى ما أقول. كنت أسألك عن تلك الرسالة. لقد أتيح لك الوقت الكافي للتفكير. فهل ما زلت تأخذينها على محمل الجد؟».
أشاحت وجهها عنه ونظرت بحيرة الى يديها ثم سألت بتحدٍ:
«وماذا اذا أخذتها على محمل الجد؟».
«أولا، تفهمت موقفك المبلبل بعد الحادثة، لكن الوقت حان لأن تعودي الى التفكير المنطقي».
«لقد أعطيت وعداً. انه الوعد الأخير الذي ساعطيه».
«أعتقد انك تبالغين في الدراماتيكية». ثم قرّب رأسه عبر الطاولة وقال بجدية مفاجئة: «بامكانك ان تطلبي مني عدم التدخل في شؤونك اذا شئت. لكنك أوقفت حياتك على امك وهي تمكنت من تقييدك وحرمانك من الحرية الحقيقية».
حاولت الاعتراض فأسكتها بحركة من يده وتابع:
«لقد طلبت منك ايصال هذه الرسالة حين كانت في حالة مرضية شديدة أعاقتها عن استيعاب هذا الطلب. ألا ترين يا سو، أن الأمر قد يعني مزيداً من القيود ولديك منها ما يكفي؟ انك لم تسمعي بهذا الشخص الذي ستحملين له الرسالة، وقد يكون قريباً عجوزاً، انه عجوز بلا شك، اذا كانت أمك كتبت الرسالة منذ أمد بعيد. ومهما يكن هذا الشخص، سيحتاج على الأرجح الى رعاية واهتمام، وأنت لن ترفضي هذه المساعدة لمعرفتي بك!».
تقلصت يداها بعصبية تحت الطاولة. لا يحق لتيم ان يكلمها هكذا! انها لا تخصه بأي شكل ولا تريد ان تخصه. لكن هل تراه خاطبها بهذا الأسلوب لأنه قلق عليها؟ أجابت بتلعثم:
«قد تكون مخطئاً يا تيم، لقد أخبرتك سابقاً ان امي كتبت الرسالة قبل بضعة أسابيع. لم تكن مفرطة الحساسية انما كانت عرضة لهذه التكهنات المسبقة».

ان أمك لا تحبك كثيراً، واستغرب هذا باعتبارك ابنتها الوحيدة. فلطالما رأيتها تنظر اليك نظرات غريبة وكأنها لا تأبه كثيراً لما ترى. كأنك تذكرينها بشخص لا تحبه. فضلا عن انك لا تشبهينها البتة. لكن من ناحية أخرى، كانت معظم الوقت تتشبث بك بتملك، وأحياناً ترفض ان تدعك تغيبين عن بصرها. تذكري كيف أصرت على أن تجدي عملا في الجوار بعد تركك الجامعة، أرادتك دائماً قريبة منها، وهذا ليس اثباتاً لمدى حبها لك. قد يكون السبب افتقارها الى الأمومة الحقة، فلم العجب الآن اذا أبديت شكوكي في طلبها الأخير؟».
ألمتها منطقية كلامه فجفت شفتاها وشحب وجهها. لم تدرك انه كان واعياً لهذا المقدار من الحقائق! لم تشك كثيراً في ان اهتمامه كان بدافع ذاتي. لكن أنّى له ان يدرك كم يتألم المرء حين تخضع مخاوفه وظنونه الخاصة لتحليل قاس كهذا! ان علاقتها المشتركة مع أمها كانت شيئاً لم تشأ ابداً ان تبحثه مع أحد، ولا مع تيم بالذات، ذي النظرة الموضوعية للأمور. لهذا أجابت أخيراً ببرود:
«أفضل عدم بحث الموضوع».
عاد صبره ينفد وهو يرقب عينيها تتسعان تحت أهدابها الداكنة بنظرة دفاعية، وتمتم غاضباً:
«أعتقد أحياناً اني لا أفهمك بالمرة يا سو».
وكادت ان تجيبه، «أنا ايضا لا أفهمك معظم الوقت». لكنها ابتلعت الجواب. فهو برغم كل شيء، كان عطوفاً وساعدها كثيراً في الأيام الأخيرة، وبدا انه الصديق المقرب والوحيد في حياتها. كان ايضا الرجل الوحيد في دائرة معارفها الصغيرة التي تقبلتها امها بلا اعتراض. نظرت اليه بكآبة وقالت:
«حاول ان تتفهم وتتحمل يا تيم، فالحادثة ما تزال جديدة».
«اني أحاول يا سو».
سمعته يتنهد، ثم بدّل تكتيكه فجأة فتوسلها بلطف محيّراً اياها كما كان يفعل لدى انقلاباته هذه. غطى يديها بكفه المتقلص وقال:
«حبيبتي، لماذا لا نتزوج لأستطيع الاعتناء بكل شيء عنك. اني واثق من أن امك كانت ستوافق اذا تزوجنا سأضطلع بكل شؤونك، واذا

تحاشت الرد على تعليقاته الأخرى لعجزها عن نفي ما تحتويه من حقائق.

لم يتأثر بجوابها وهي ما توقعت ان يفعل. أجابها بجفاف وبنظرة شك من عينيه البنيتين:

«سوزان باستطاعة كل منّا ان يتخيل اصابته بحادث. انه نوع من الوقع الفيزيولوجي، والحوادث تحصل كل يوم. لكن امكِ كانت صارمة وعنيدة الى حد منعها من الاستعانة ببعض التعقل».

«ليس الأمر كذلك يا تيم».

كان صوته يمزق أعصابها بقسوة، وأسلوبه الاستخفافي يثير في أسنانها ضريراً. أرادت ان تنهض وتتركه، لكن نزعة عنيدة في طبيعتها أرغمتها على البقاء. فأردفت تقول:

«يجب ان تفهم ان هذه مهمة يتوجب عليّ القيام بها بغض النظر عن رغبتي تجاهها. فأنا لا أرغب شخصياً في ملاحقة شخص مجهول في اسكتلندا في الوقت الحاضر. لكني وعدت!».

«كنت حينها مضطربة بطبيعة الحال! ليتك تفكرين بعناية يا حبيبتي... فالوعود...».

ولأول مرة تردد واحتار خوفاً من ايلامها، فأكملت عبارته بجمود:

«تقصد الوعود التي تقطع على فراش الموت».

«أعتقد اني أقصد ذلك، لكني ما نويت ان أقوله بهذه الفجاجة. أعلم ان كثرة من الناس تستصعب رفض الطلبات في وقت كهذا».

أضاف سكّراً الى قهوته معطياً لنفسه وقتاً للتفكير. ثم سألها:

«أتسمحين لي بالصراحة يا سوزان؟».

أومأت وبشيء من الحذر، فتابع وبصره يجول بلطف في محياها الناعم الجميل:

«أدرك شعورك تجاه أهمية هذه الرسالة. ولكن فيما يتعلق بك، لم أكن أثق بأمك في حياتها، وأخشى اني لا أثق بها حتى الآن».

«أرجوك...».

لكنه لم يسمح لشهقتها المعترضة بأن توقفه عن الكلام:

«اسمعيني الى النهاية لأني لا أقصد سوى مصلحتك. كنت أشعر احياناً

أصريت، سأرافقك لتسليم تلك الرسالة الغامضة ربما في عطلتي المقبلة أو في نهاية اسبوع طويلة».

«أواه يا تيم!».

تجمع الدمع في مقلتيها وتمنت لو تتمالك أعصابها... لفتة عطف واحدة ما تزال تبكيها! منعت دموعها من السقوط وقبل ان يتنبه تيم لتأثرها. انها لم تبلغ العشرين بدون ان تقيم صداقات مع الجنس الآخر. كانت صبية معافاة وتحب الاستمتاع والمرح، لكنها لم تستمتع في الحقيقة بمعظم تلك الصداقات لأن امها كانت تبذل أقصى جهدها لاغاظة هؤلاء الشبان، ولم تتمكن أبداً من الاحتفاظ بهم بعيداً عن امها التي كانت تجد في كل منهم سيئة ما تظهرها بوضوح، فتتلف صداقة مرحة انما قابلة بسهولة للتحطيم.

تذكرت سوزان هذا وتساءلت لماذا كانت تستسلم لأمها بسرعة. كان يضايقها احياناً انها وصلت هذه السن من دون ان تعرف الحب. هل هي مثل امها، تخلو من أية طاقة حقيقة على الاحساس بمشاعر أعمق؟ أو ربما العواطف التي حلمت بها كانت غير واقعية كلياً، والأحاسيس الدافئة المجنحة مجرد اسطورة؟ كانت مولعة بتيم معظم الوقت، فهل كان هذا كافياً يا ترى؟ لكنها نبذت فكرة الزواج منه حالما طرقت ذهنها. لا يمكنها ان توافق. ليس الآن. ليس قبل ان تتأكد تماماً.

ارتجف صوتها قليلا وهي تحاول اخفاء ترددها وقالت:

«آسفة يا تيم. لا يمكنني الزواج من أي كان في الوقت الحاضر».

نظر الى وجهها الشاحب والمتورد قليلا، واعتقد انه فهم السبب. لقد استعجل عليها ولم يمض وقت طويل على فجيعتها. ضغط يدها مطمئناً وقال:

«لا تقلقي يا حبيبتي. سأكرر طلبي في مرة أخرى، انما فكري في الموضوع».

ثم نظر الى ساعته بقلق وأضاف:

«لكن عديني ألا تتصرفي في الموضوع الآخر قبل ان تعلميني».

تمنت لو انه يتوقف عن مناداتها «حبيبتي»، فقد يترك ذلك انطباعاً سيئاً لدى الناس. شعرت ايضا بفيض من الارتياح لكونه جمّد فكرة الزواج،

لكنها لم تشأ ان تعده بأي شيء، ولا حتى باطلاعه على تفاصيل عابرة عن تحركاتها، فقد يفيدها الابتعاد عنه لفترة، ومن الأفضل ألا تصارحه بهذا تحاشياً لايلامه. هزت كتفيها وقالت بعد ان نظرت اليه بسرعة:

«لست متأكدة مما سأفعله».

حملت حقيبتها استعداداً للخروج وأشار هو الى المضيفة طالباً الحساب. وهنا أضافت:

«لن أتأكد قبل ان أقابل محامي والدتي. لديّ موعد معه اليوم بعد الظهر».

واجهتها ريح صيفية جافة حين افترقت عنه خارج المطعم، فشقت طريقها نحو موقف الباص. خسارة في هذا الطقس المشرق ان لا تذهب مشياً. لكن الريح كانت مزعجة تطيح بالنفايات الصغيرة وتنثر الغبار الناعم حول قدميها. كان هناك تلميذ بادي الضجر، يمرّغ أصابع قدميه في الغبار فقاومت رغبة في الحذو حذوه. شدّت قامتها وقالت لنفسها بحزم ان لندن، حتى في شهر آب (اغسطس)، لا تخلو من الملاحة، وانها اذا لم تكن تحب العيش في مدينة كبرى فهناك ألوف يحبون ذلك. أمها أحبت لندن ووجدت في شوارعها المكتظة ما كانت تصبو اليه من مجهول.

تنهدت بضيق وقفزت الى الباص حين وصل، مختارة الجلوس في طبقته العليا، وراحت تحدّق عبر النافذة الى صفوف البيوت والحوانيت التي كانت تعترض بصرها ثم تذوب وتتحول الى بقع تافهة. وسرعان ما اجتاحها احساس واضح بالحرية، احساس بأنها تستطيع، لأول مرة في حياتها، ان تختار ما يسرها من أمكنة السكن والعمل. هناك بالطبع مشكلة الشقة لكن اخلاءها سهل، كذلك عملها الحالي في مكتبة الحي يمكنها الاحتفاظ به ريثما تجد عملاً تدريسياً ثابتاً. فبعد رحيل امها لا يوجد من يضطرها الى البقاء هنا. تيم سيتقبل في النهاية رفضها الزواج منه، واذا شاء، برغم ذلك، ان يظل على اتصال بها، فلن تمانع.

لم يدعها المحامي تنتظر طويلا. كان رجلا شاباً، ذا عقل كمبيوتري واسلوب أشبه بجهاز النقل في تعامله مع الزبائن. دعاها فوراً الى الجلوس وعزاها بصوت رسمي رفيع النبرات. وبرغم ذلك، سرتها ضيافته الجدية ووجدت فيها تغييراً مريحاً لعطف تيم الخانق في معظم الأحيان. جلست

على المقعد الذي اختاره لها وواجهته بوقار. قال لها وعيناه الرماديتان تحتويانها بلا ابتذال:

«كنت خارج لندن ولذا تأخرت في الاتصال بك. أملاك امك لا تشكل أية معضلة، انما هناك شيء غامض بالنسبة اليّ».

انتظرت بصبر حين توقف عن الكلام وأخذ يبحث عن ورقة على مكتبه. لم تلتق هذا الرجل من قبل مع ان امها استشارته مرتين حول قضايا بسيطة. انها لم تسمع بوجود أملاك. لعله يقصد بعض الباوندات التي قد تكون امها تركتها في المصرف. وعندها، تذكرت سو مال التأمين فقالت للمحامي:

«اعتقد ان والدي ترك تأميناً. فبعد موته، كانت امي تتلقى مبلغاً شهرياً منتظماً. لم تذكر لي قيمته، ولا أعتقد انه سيساوي كثيراً بعد التضخم. أبي توفي قبل ان أولد وهذا المال ساعدنا كثيراً. أظن انه من واجبي الآن ابلاغ الشركة بوفاتها. كانت سخافة مني ان أنسى هذا الواجب».

اتعسها عرضها المشوش للحقائق والألم الذي أحدثه، فقلصت يديها في حضنها.

وجد المحامي ما كان يبحث عنه وحين نظر اليها بامعان لاحظ الضيق في عينيها الغائمتين فقال بهدوء:

«لا تقلقي لهذا التأخير يا آنسة غرينجر، لكني أردت في الواقع ان أحدثك بشأنه، فأمك ذكرت قضية التأمين منذ وقت بعيد، انما حين استفسرت عنه في المصرف اتضح ان لا تأمين هناك. بالطبع كان يضاف مبلغ الى حسابها كل شهر، لكني لم أتوصل الى مصدره. فهل لديك معلومات توضح المسألة؟».

فاجأها الخبر فأحست خواء في داخلها. اذا لم يكن هناك تأمين، ولا سبب يدعوها الى تكذيب المحامي، فمن أين كان المال يأتي؟ سألته:

«أأنت متأكد من عدم وجود غلطة ما؟».

«الغلط ليس وارداً. بالتأكيد».

تقبلت جزمه بانهزام وراح ذهنها يبحث عن تفسير معقول. لم تتوصل الى نتيجة قذب فيها الخوف.

«أنا لا أملك إلا الرسالة».

قالت العبارة همساً وشعرت فوراً بالذنب. ولكن ما عساها أن تفعل غير هذا؟

«رسالة؟ هل يمكنني الاطلاع عليها؟» ومد يده منتظراً.

أجفلت داخلياً وهي تخرج الرسالة من حقيبتها وقالت:

«آسفة. لقد وعدت امي بأن اسلمها لصاحبها بدون ان افتحها. لكن اذا كان العنوان يساعدك فلا بأس ان تطلع عليه».

تناولها من أصابعها الباردة بدون ان يعلق على عبارتها الغريبة وقرأ العنوان بامعان. ثم قال:

«انها معنونة الى السيد جون فريزر في غلنرودن، بيرتشاير وبخط أمك ان لم أكن مخطئاً».

تناول احدى الأوراق وقارن الخطين ثم أومأ قائلا:

«الخط واحد فلدي هنا توقيع امك. لكن أليس لديك فكرة عن مضمون الرسالة؟».

«كلا. لكني مزمعة على زيارة اسكوتلاندا في أسرع وقت فلعلي اكتشف شيئاً. هل تعتقد ان لها علاقة بقضية التأمين؟».

«ربما. هل حدث وسمعت شيئاً عن السيد فريزر هذا؟».

هزت رأسها سلباً وقالت:

«كل ما أعلمه ان والدتي لم تذهب ابداً الى اسكوتلاندا، كذلك لم تبارح لندن. كانت تقول ان اسكوتلاندا مكان مقفر بارد».

«وهل صدقتها؟».

«ليس تماماً. أعتقد انها كانت ستغير رأيها في حال أقنعها أحد بزيارتها. اني أحاول فقط ان أفسر استغرابي لهذه الرسالة ولا اعرف مطلقاً من يكون هذا الرجل».

«وحتماً، لن تفكري بفتح الرسالة؟ ان الاطلاع عليها قد يوفر... متاعب كثيرة على المدى البعيد».

«كلا، لا يمكنني بحال ان أفتحها».

لماذا تردد قبل ان يقول «متاعب»؟ ثم ألا يدرك بانه يطلب المستحيل؟ ربما هو، كما تيم، يظنها بالغة الدراماتيكية. أثقلتها الحيرة فأشاحت عن المحامي. لقد وعدت أمها، والوعد وعد مهما تكن الظروف. قال:

«فهمت».

ولم يعلق بكلمة أخرى لكنها أحسته يتفرس فيها متفحصاً، وأخيراً تابع:

«اذن سننتظر نتيجة زيارتك لبيرتشاير لنتصرف في ضوئها. رحلتك قد تكون مفيدة من عدة نواح واذا لم تكن، لن تؤثر عليها خسارة اسبوع او اثنين».

كانت لا تزال تفكر في تعليقاته الغامضة حين اقتربت بعد اسبوع من ادنبره قبيل الغروب.

«ظلي على اتصال بي واعلميني بكل ما يحدث معك».

قال لها لما خابرته لتودعه. لقد أظهر ذعراً، كما فعل تيم، حين اصرت على الذهاب بمفردها. بيد انها لم تخبر أياً منهما بأن أمها توسلت اليها الا تصطحب احداً. تيم حاول اقناعها بأن قرارها خال من المنطق تماماً، واستاء للغاية حين رفضت الاصغاء اليه. ان مجيئها بمفردها افضل بكثير، ففي حال كانت الرسالة تتضمن اخباراً سيئة فلن يكون معها احد يشهد ذلها. ومن عادة تيم ان يجهر تعليقاته الشامتة حين تظهر الأحداث انه لم يكن مخطئاً.

وبرغم الجدل حول مهمتها وبرغم تخوفاتها الخاصة، تلفتت سو حولها بلهفة وسيارتها الصغيرة تنهب الأميال بلا أي خلل او ابطاء. كانت تخص أمها التي ابتاعتها رخيصة بمال ربحته في احدى المسابقات. لقد أصرت على ان تتعلم سو القيادة كي تتمكنا من التنزه معاً في نهايات الاسابيع. ضريبة السيارة كانت مدفوعة حتى نهاية السنة ولكن بعد عودتها الى لندن لا بد لسو من التخلي عنها توفيراً للمصاريف.

تنهدت ثم أخذت تفكر في رحلتها لتحول أفكارها الى قناة ابهج. كانت رحلة جيدة لغاية الآن. لقد ودت ان تقضي وقتاً أطول في يورك حيث الكاتدرائية الساحرة، لكن الطقس كان رائعاً ومشجعاً على متابعة السفر توفيراً للوقت. شمالاً، وبعد اجتيازها منطقة تاين وتيز الصناعية الخانقة، رحبت بالتلال والجبال. توقفت قليلاً في بلدة ألنويك التاريخية الحدودية لتناول الغداء ثم تابعت السفر بلا توقف. الآن شعرت بالتعب وتثاءبت وهي تقود سيارتها على طريق دالكيث. ربما كان من الغباء ان تقطع هذه

المسافة في وقت قصير كهذا، انما كان في داخلها شيء يحثها على التقدم، فضول عميق للتعرف الى هذا الرجل المدعو فريزر، الى هويته وشكله. فضول ممزوج في غرابة بمشاعرها الغاضبة تجاه امها لأنها لم تأتِ على ذكره الا بعد ان فات الأوان على أي تفسير. لا شك انه كان شخصاً مهماً بالنسبة اليها في احدى مراحل حياتها، تيم كان محقاً على الأرجح، ففي مكان ما قد يكون هناك خال او جد هجرته امها يوماً. هذا الشخص موجود حتماً والا لماذا شعرت امها بعذاب الضمير؟

ادنبره، عاصمة الشمال الرمادية، هي حقاً مدينة جميلة وبهية. لدى وصولها اليها، أخذت سو انطباعات خاطفة عن البنايات الرائعة والشوارع الفسيحة المحددة بعمارات سكنية عالية وأزقة ضيقة. القديم والجديد جنباً الى جنب! تقدمت ببطء وبلا تذمر عبر حركة سير مسائية متكاثفة. اهتمام مثير بدأ يمحو تكاسلها السابق، وازدادت حماسة وهي تتأمل ما حولها لدى تباطؤ السير. على جسر ويفرلي ودخولا في برنسس ستريت أحست ألقاً ايجابيا يعود اليها.

لكن الألق خبا قليلا لدى بحثها عن مكان تنام فيه. طرقت عدة فنادق بلا جدوى، وفي النهاية استعانت بمركز الاستعلامات فأمن لها غرفة مرتفعة الأجر. كل الفنادق مكتظة بسبب المهرجان السنوي الذي يؤمه الناس من كل صوب. هكذا اخبرتها موظفة الاستقبال في الفندق.

ولما استتبت في غرفتها احتارت أي ثوب ترتدي للعشاء، لكونها لم تحضر معها ثياباً رسمية سوى تنورة طويلة سوداء لم تتوقع ان ترتديها. وحين استعرضت الأثاث الفاخر حولها قررت ان تلبسها مع بلوزة بيضاء طويلة الكمّين.

كانت جائعة، فاستحمت ولبست بسرعة وهبطت الى المطعم. ولأول مرة منذ غادرت لندن قرصتها الوحشة اذ وجدت نفسها وحيدة وسط الأزواج وأفراد العائلات الضاحكين حولها. انه وقت المهرجان والجميع يلهو ويستمتع. هزت كتفيها وذكّرت نفسها بأنها لم تأتِ بقصد الاستمتاع. طلبت طاولة هادئة. فقادها رئيس الخدم الى واحدة وهو يرمقها باستحسان. تبعته غير شاعرة بأنها في ثوبها الرسمي وشعرها الأملس المسحوب الى خلف بشريطة مخملية تبدو كآنسة فكتورية انفلتت من

التاريخ.

كانت تتناول طبق السمك حين دخل الرجل صاحب التنورة. لقد قيل لها انها لن ترى اليوم في اسكتلندا رجالا يرتدون هذه التنانير، وأن السياح الذين يتوقعون هكذا مشهد يصابون بخيبة، لكن هذا الرجل يرتدي واحدة! رداء رائع من التارتان (قماش صوفي مربع متعدد الألوان) يأسر النظر او بالأحرى الشخص الذي يلبسه! رجل جبلي وسيم، فارع القامة مديدها! انحبس النفس ضيقاً في حلقها. كان طويلا اسمر. تبدو الثقة واضحة في كل خطوط جسمه المتين وفي شموخ رأسه. ولاحظت سو قبل ان يجلس كيف تطوحت التنورة برشاقة حول ردفيه. وبجهد ازاحت بصرها عنه لئلا يراها تحدق اليه. كانت معه رفيقة، فتاة تكبرها سناً انما اصغر من الرجل، في اواخر عشريناتها ربما.

كانت انيقة، ترتدي التارتان ايضا مع وشاح داكن على كتفها. كانا كأخوين تقريباً فتقاسيمهما تبدو مجبولة بالاعتداد الشديد نفسه.

ركزّت سو على طعامها وهي ترفض صبغ مشاعرها العاطفية بطابع الجد، وتعزو تشتت ذهنها الى فجيعتها الأخيرة والمسؤولة بالتأكيد عن تصرفها الأنف وكأنها تلميذة مراهقة سريعة الانفعال!

وفجأة، احست بنظرة مباشرة تسلط عليها وتجذب بصرها كما المغنطيس. رفعت عينيها بالرغم منها لترى صاحب التنورة يحدق اليها كما حدقت اليه من قبل. كانت عيناه تستقران على وجهها بدون طرفة جفن وبتركيز حاد وكأنه يرى شبحاً.

وبصعوبة اشاحت بصرها عنه. سرت فيها رعدة غريبة وضايقها ان يتمكن هذا الغريب من التأثير عليها بعينيه فقط. هل ان امعانها السابق به جذب اهتمامه بها؟ اخجلتها الفكرة وألهبت الدم تحت جلدها. امتعضت لتصرفها الجبان، ولخوفها من انفعالات مخجلة لاحقة، تناولت حقيبتها وغادرت المكان بسرعة.

وفي احدى قاعات الاستقبال الفسيحة، غرقت في مقعد وثير مرغمة نفسها على الاسترخاء. ان الرجل بالكاد لاحظها، وهي تصنع «من الحبة قبة». ثم لماذا يهتم بفتاة غريبة مثلها، وبرفقته فتاة ساحرة أخاذة؟ في أي حال، طمأنت نفسها، لن تراه مرة أخرى. فهنا ستضيع وسط الرواد الكثر

وخليط الطاولات والمقاعد الوثيرة، وستتمكن من الاسترخاء قبل العودة الى غرفتها. الوقت متأخر وعليها ان ترحل باكراً.

احتست قهوتها باطمئنان، وتركت رأسها يرتاح على طراوة المقعد. الجلبة خفت حولها وأدركها التعب، فاغمضت عينيها وكادت تنام.

صوته المفاجىء أجفلها بقوة وجعلها تنتصب جالسة بذعر وتتورد مرتبكة. قال:

«مساء الخير. أعتقد اني مدين لك باعتذار».

كان صوته عميقاً، كامل الرجولة ككل شيء فيه. قربه منها فارعاً ومتألقاً في ردائه الفولكلوري كان له وقع أسوأ من الوقع السابق. شعرت وكأنه يمد يده ويلمسها، فاكتنفها الذعر حين تشابكت نظراتها.

«عفواً».

كلمة خاوية لفظتها بصعوبة وهي تتشبث بذراعي المقعد. لم تجد شيئاً آخر تقوله. لماذا يتصور انه مدين لها باعتذار؟ الا اذا!

«أظن اني اخفتك في قاعة الطعام».

تابع القول وكأنها لم تتكلم، وهو يتحرك حولها ويزيح فنجان القهوة الذي لامس تنورته. تسمرت في مكانها ولاحظت توهج الخاتم الماسي حول اصبعه. وطوال الوقت كان يحيطها بنظرته الثابتة، معرّياً اياها من ثقتها الذاتية. تمعن في محياها البيضاوي الناعم، شعرها الأشقر، عينيها الدخانيتين، اهدابها الداكنة وقال:

«لدي شعور بأني رأيتك قبلا في مكان ما. كنت أحاول التوصل الى هويتك، لكنك غادرت فجأة وبدون ان تنهي طعامك. وفوراً أحسست بالذنب».

«أحسست بالذنب؟».

رمشت بحيرة ورمقته بارتباك وشك، فرأته يبتسم ويمعن في جرأته، انها حتماً أقدم لعب الاصطياد في العالم! لقد أثارت اهتمامه فاراد التعرف اليها، والا لماذا يهبط رجل مثله الى مستوى منحرف كهذا؟ وللحظة قصيرة تملكها الغضب، لكنها سرعان ما اخمدته بشيء من التعقل. فرجال في مستواه لا يلتقطون الفتيات بهذا الشكل، كما لا يجب على الفتيات مثيلاتها ان يفكرن بهذا الأسلوب الرخيص. اذن لماذا تقرب منها هكذا؟ ألأنه شعر

غريزياً بانجذابها اليه؟ قالت في برود:

«أخشى أنك اخطأت الظن، فأنا واثقة من اننا لم نلتق أبداً من قبل. ربما أنت تعرف فتاة تشبهني. والآن، استأذن...».

لم يحاول نفي تأكيدها ولم يتزحزح بل استمر يعلو عليها ويرمقها عن كثب متفرساً فيها بغرابة. لذا لم ينتبه كلاهما لوصول الفتاة الا حين تكلمت وسألته:

«ماذا تراك تفعل هنا يا حبيبي؟ فهمت منك انك ستنتظرني عند مكتب الاستعلامات؟».

ثم شخصت الى وجه سو المتوتر وأضافت بحدة:

«لم أعلم انك تعرف احداً هنا».

توقفت سو عن تناول حقيبتها وأدارت رأسها تتأمل الفتاة عن قرب. لم تكن مراهقة بأي حال انما جميلة. لكن وجهها كان يتميز بقسوة معينة تتعارض مع الرقة الذائبة في نظراتها الى الرجل. من هنا تأكدت سو انها ليست شقيقته. فليس هناك أخت تنظر الى أخيها هكذا.

وقبل ان تتكلم، قال الرجل باقتضاب وكأنه لم يرحب بوصول رفيقته المؤقت:

«انك تطيلين الوقت عادة في اصلاح زينتك يا كارلوت. كنت فقط أكلم هذه السيدة الشابة لتصوري اني رأيتها قبلا في مكان ما، لكن يبدو اني كنت مخطئاً. على أي حال، انها تبدو وحيدة ولعلها تقبل دعوتنا الى فنجان شاي».

اقتراحه أخل فجأة بأنفاس سو. رمقت الفتاة بارتباك فرأتها تحدق بالرجل بعبوس وتعجب واستياء، وفي عينيها ادانة واضحة لتقربه من سو. وسمعتها تعترض بصوت جليدي:

«لكنها لا تعرفنا البتة».

«سنعالج ذلك بسهولة».

عاد ينظر الى سو، ومد يده بتهذيب قائلا:

«أنا ميريك فيندلي وهذه الآنسة كارلوت كريغ».

لم تتعجب سو كثيراً لعدم اهتمام كارلوت بالتعريف. تجاهلته تماماً وأخذت تحدق الى ميريك فيندلي وكأنه فقد عقله، وارتفع صوتها الى نبرة

شبه هستيرية:

«لقد نسيت يا ميريك ان امي تنتظرنا. لقد تأخرنا بما فيه الكفاية».

فأجابها:

«لن يضيرها ان تنتظر دقائق أخرى».

وعاد ينظر الى سو المرتبكة ويسجن نظراتها بعينين مهددتين كأنهما بركتا ظلام.

أحست سو وكأنها ذبابة تسقط في شرك، فيما العنكوت يترصدها ويلاحقها بقسوة. كان محياه الداكن يحوم فوقها بتعبيرات مبهمة فتوقف قلبها للحظة عن الخفقان. فقدت كل ارادتها وأحست ارتخاء غريباً في مفاصلها. أذعرها الشعور، ومرة أخرى، برقت شفتاه بابتسامة خفيفة وكأنه أحس بعجزها عن الحركة.

وفجأة، لفح الغضب ذهنها وجسمها المخدرين، اذ خطر لها انه تصرف معها هكذا ليثير غريزة رفيقته او ليغيظها بشكل ما. انه احتمال مرجح، ولطالما علّقت امها على الوسائل الملتوية لبعض الرجال!

التهب خداها ونهضت بسرعة متجاهلة يده الممدودة، واستدارت الى كارلوت تقول بعذوبية:

«اعتذر ان كنت قد اخرتكما عن موعدكما بدون قصد. لا تجعلاني أؤخركما أكثر، وأنا أكيدة بأن السيد فيندلي لم يدعني الا من باب التهذيب».

عضت شفتها بخيبة واعتبرت الحادثة منتهية بالنسبة اليها. انحنت لتتناول شالها فرأت اليد التي تجاهلتها تلتقطه بالنيابة عنها، وقبل ان تستطيع الاعتراض، فرشه على كتفيها فأرعشها ملمس أصابعه عبر قماش بلوزتها الرقيق. خفق قلبها متسارعاً فجمدت مسلوبة الأعصاب، تشاركه النظر بعينين متسعتين. وخلال الصمت اللاحق قالت:

«تصبح على خير». ثم هربت قبل ان يستطيع الكلام.

شرارة انتصار واحدة أنارت طريقها وهي تعود مهرولة الى غرفتها. لقد استعانت ببعض التعقل فلم تذكر اسمها لميريك فيندلي!

٢ - لقاء المارد

اطل الصباح التالي ضبابياً ورمادياً مع انسكاب مطر، فبلّل المعنويات والثياب معاً. لكن سو شعرت ازاءه بامتنان غريب، اذ رحبت بأية تغطية يمكن ان يزودها الفضاء الغائم بكثافة.

«طقس آبيّ اغسطسي نموذجي!» علّقت موظفة الاستقبال وهي تبتسم بالتواء، لكن سو لم تعر التعليق كثير انتباه وهي تسارع في دفع الحساب قبل ان تلتقط سيارتها من المرآب.

لم تر إلّا القليل من ادنبره وهي تغادرها، حتى القلعة كانت بالكاد مرئية تحت خيمة الغيوم التي تلفها. فقط تمثال سكوت (الشاعر والروائي الاسكتلندي) بدا واضحاً خلال عبورها برنسس ستريت. وهنا، وعدت نفسها مجدداً، كما فعلت في يورك، بأن تقضي فيهما وقتاً اطول لدى عودتها كي ترتاد معالمها جيداً. تنهدت وهي تضغط في ندم على دواسة الوقود. فهي على ما يبدو تقوم بالاشياء بالمقلوب.

حثها شعور مؤلم على العجلة، فخرجت من المدينة في سرعة، عبر جسر الشارع الرابع الى تلال فايف. ركزت كلياً على الطريق المبللة الزلقة، وعلى المطر المنهمر على زجاج السيارة الأمامي. عليها ان تفكر بأي شيء ينسيها الليلة الماضية، الحادثة المقلقة في الفندق. فهي ما تزال ترتعش لدى التفكير فيها. لم تكن تتصور ان تلتقي ميريك فيندلي مرة اخرى، ولا هي ترغب في ذلك، هكذا طمأنت نفسها، انما، وبسبب صدفة غريبة، ما انفك قلبها يخفق كلما فكرت فيه، وما تزال تحس رفة ندم غريبة تتصارع مع رغبتها في النسيان.

من الواضح ان ميريك فيندلي كان ايضاً عرضة لتندمات من نوع آخر، فهي لم تر له اثراً حين تناولت فطور الصباح. تناولته في عجلة لخشيتها من احتمال لقائه، لكن قلقها كان في غير محله. فالطاولة التي احتلها في الليلة السابقة كانت خالية، وكارلوت لم يظهر لها اثر هي الاخرى. لذا لم يسع سو الا ان تقرر جازمة بأن استنتاجاتها كانت صائبة. كان ميريك يستعملها ككماشة صغيرة لينتزع بعض الغيرة من صديقته الجميلة. الناس لا يتورعون عن فعل اغرب الاشياء من اجل حماية عواطفهم... لكن استحالة اقدام ميريك على تصرف كهذا استمر يعذب آمالها واضطرت لبذل مجهود قوي كي تحول افكارها الى اتجاهات اخرى، ولتطرد من ذهنها وجهه الجذاب الى حد المخطر. لا يجب ان تسمح لاي شخص ولأي شيء ان يشغلاها عن ايجاد غلنرودن والسيد فريزر الغامض.

كانت الرؤية محدودة بسبب المطر والضباب، ولما انقشع الجو اخيراً واشرقت الشمس حمدت سو ربها. هنا، ادهشها ان ترى الريف قليل الوعورة. كانت اراضيه متدحرجة ذات حقول شاسعة وبيوت زراعية كبيرة. لكن بعد اجتيازها بيرث تغيرت طبيعة الأرض فاصبحت جبلية برية، وبعد دانكلد واجتيازها الطريق العام، احست بوحشة الغابات تكتنفها وتضغط عليها. استعانت بخريطتها لتتحاشى اتباع المنعطفات الخاطئة. وبعد ان قطعت عدة اميال ووصلت قرية هناك قررت ان تتوقف وتستعلم عن الطريق. فلا بدّ انها اصبحت قريبة من المكان، والاستفسار عن الوجهة الصحيحة يوفر عليها اميالاً طويلة. هذا ما قالته في نفسها وهي توقف السيارة امام حانوت القرية.

«غليزودن؟».

هتفت المرأة الكهلة عبر الفاصل الخشبي جواباً على سؤال سو المتلهف، وقد استغربت امتلاء الحانوت بالناس بالمقارنة مع وحشة الريف المحيط بالقرية. شعرت بخديها يتوردان قليلاً حين استدارت اليها عدة وجوه ترمقها في فضول.

«لا شك انك تريدين جون فريزر».

تابعت المرأة فيما اومأت سو برأسها مرتبكة وقالت:

«او ربما تستطيعين...».

فقاطعتها امرأة اخرى بلهفة:

«اعتقد ان السيد فريزر يشكو التواء في كاحله. هكذا اخبرتني جارتي هذا الصباح. لقد لواه في حقل الخليج (نبات منخفض في الجزر البريطانية) ولذا ستجدينه في البيت حتماً».

لم تجب سو بل وقفت صامتة تتلقى الارشادات من المرأتين معاً. قالت احداهما:

«تقدمي مسافة ميلين في خط مستقيم، خذي يمينك مرتين ثم يسارك مرتين. لن تضيعي المكان».

وقالت صاحبة الحانوت:

«هناك بيتان، واحد كبير واخر اصغر منه. جون فريزر يقطن الاصغر».

ثم نظرت الى سو مقطبة واضافت بدون ان تتوقف عن تلبية الزبائن:

«يبدو لي اني رأيتك من قبل في مكان ما».

«لا اعتقد ذلك».

اجابت سو في شبه ابتسامة وشكرت المرأتين على مساعدتها، ثم اردفت وهي تتراجع في عصبية صوب الباب:

«لم ازر هذا المكان من قبل ولذا استبعد ما تقولين».

خرجت الى سيارتها مهرولة وصدمة قارصة تسري في كيانها. لقد جاءت لتبحث عن هذا الرجل المدعو فريزر ولكن عثورها عليه سحق فيها املاً واهياً بأن لا يكون موجوداً. حاولت بقنوط مقاومة رغبة في العودة الى لندن، وهي تدرك في الوقت نفسه بانها لا يجب ان تنقاد لميولها الجبانة هذه. اجفلت كسائر في نومه يوقظه احدهم بقسوة، وادركت انها امام خيار واحد فقط. لان اي تصرف اخر كفيل بأن يحرمها راحة البال في المستقبل.

ادارت محرك السيارة بحركة آلية فأعادها الهدير المفاجىء بعنف الى الواقع. ما اغباها تجلس هنا وترتجف كورقة. كل ما عليها فعله ان تتقدم الى غلينرودن فتوصل الرسالة ثم تعود. هذه العملية قد تستغرق اقل من ساعة، اذن لا موجب لكل هذا الاضطراب، وليس ثمة ما يبرر شعورها الطاغي بالتعاسة. استوت في جلستها بحزم، ثم ازاحت شعرها الاشقر بأصابعها المستمرة الارتعاش ومضت بسيارتها قدماً.

وجدت غلينرودن في سهولة وبخلاف ما توقعت. الصعوبة الوحيدة

كانت في الطريق الملتوية ذات المنعطفات المجنونة التي كادت تصيبها بدوار. في احد الاماكن اضطرت لأن تعبر مقطع نهر حيث المياه تغمر الطريق، وحين اندفعت بقوة تهاجم دواليب السيارة احست سو للحظة بالخوف، اذ تصورت فيضاناً كاملاً يغمر هذه البقعة من الطريق وما يمكن ان يشكله من خطر على الوافدين الغرباء، وتنفست الصعداء حين خرجت منه بسلامة.

كان النهر يصب في خليج بدا في الجو الغائم كثيفاً رمادياً، ما لبث ان حجبه امتداد من الصنوبريات فلم تعد تراه. اخذت المنعطف اليساري الاخير، وتبعت النهر خلف الوادي، وبعد نصف ساعة وجدت البيتين المنشودين، مختفيين تقريباً في غابة من الصنوبر.

داست بسرعة على كابح السيارة اذ كادت تتخطى نهاية الطريق بلا انتباه. غيرت جهاز التبديل بضجيج، وبدون براعتها المعهودة، اذ كانت تركز على ما كان يظهر من البيتين من خلال الشجر. توقفت السيارة من تلقاء نفسها واستقرت بانحناء على الحافة المشجرة.

«اللعنة!».

هتفت سو باستسلام وهي تريح ذراعيها قليلاً على حضنها. وانقضت بضع ثوان قبل ان تنتبه للرجل الواقف على مطل صخري، وعلى مسافة غير بعيدة عنها. شهقت وهي ترى المشهد، بدا الرجل وكأنه «تيرنر» عصري (رسام بريطاني) يرسم مشهداً معقداً من الدراما المتناهية.

لم تستطع ان تميز تقاطيع الرجل إلاّ انها احسته ينظر اليها من مكانه العالي. لا شك انه سمع صوت المحرك فوقف يدينها بسوء القيادة من على برجه الشامخ! اشاحت عنه بسرعة وتساءلت لماذا يعلق اهمية على تصرفها والغرباء لا يفدون بكثرة الى هذه المناطق؟ لكن اذا لم يكن لديه ما يفعله فهي لديها مهمة عاجلة. . . ارجعت سيارتها عن العشب وتابعت القيادة بدون ان تنظر مرة اخرى في اتجاه الصخرة.

ومن لحظة توقفها امام البيت الصغير احست بأن كل شيء سيكون بخلاف ما تصورت. لم تستطع تفسير السبب، وانتابها شعور غريب جداً بأنها كادت تعود الى بيتها. واربكها الشعور وهي تعبر الفسحة المعشوشبة ما بين الكوخ والمدخل. انه كوخ اكثر منه بيتاً، قالت لنفسها وهي تقترب

منه متفحصة اياه في تمعن. البيت الآخر يبعد عن هذا مسافة مئة ياردة تقريباً ويبدو مهيباً وسط الاشجار. لم تقدر ان تراه بوضوح لكنه بدا اكبر حجماً من الأول.

كان باب الكوخ منفرجاً مما اكد لسو وجود السيد فريزر فيه. طرقته في ترقب وارتعشت في ارتباك حين لم تسمع جواباً. حاولت مرة اخرى بلا نتيجة. احتارت في امرها، ثم دفعت الباب بلطف وعناية ودلفت الى الداخل.

وجدت نفسها في ردهة مربعة، متوسطة الحجم انما مكسوة بألواح دافئة وداكنة من خشب السنديان. وعدا سجادة عجمية مستطيلة لم يكن هناك اي اثاث باستثناء سلم خشبي ضيق يبدأ من زاوية بعيدة. الباب الى يمينها كان مغلقاً، اما اليساري فكان نصف مفتوح. وفيما هي تحدق اليه وتتردد في طرقه، رأت رجلاً يكمل فتحه ويقف على عتبته.

لا شك انه جون فريزر. هبط بصرها الى قدمه. كان يقف على ساق واحدة متكئاً على عصا. وفجأة اطلقت شهقة صغيرة حين نظرت الى وجهه، مدفوعة بحس خارج عن ارادتها، ويقين داخلي بأنها يجب ان تعرف هذا الرجل الذي لا تعرفه، ولا تتذكر انها رأته مرة من قبل.

كانت عيناه الرماديتان مسمرتين كعينيها، وقبل ان تقول شيئاً سألها بفظاظة:

«من انت؟».

اعادها سؤاله بقوة الى الواقع، لكن ردود فعلها الخاصة استمرت تحيرها. انها تواجه رجلاً طويل القامة ذا شعر غزا معظمه الشيب. . . شعر اشقر كشعرها وعيناه رماديتان كعينيها، بل هو نسخة طبق الأصل عنها! رجرجت الفكرة ذهنها في عناد وهي تنظر اليه.

«من انت؟».

كرر السؤال وهو لا يقل عنها ارتباكاً انما كان مصمماً ايضاً على اكتشاف اسمها. فأجابت بتلعثم لم تدر له سبباً:

«آسفة. . . كان يجب ان اخبرك. اسمي سوزان غرينجر ومعظم اصدقائي يسمونني سو».

لم تكن مستعدة للوقع الجارح الذي احدثه تصريحها. فقد شحب وجهه

وتبدل شكله العسكري فجأة برغم ان بصره لم يفارق محياها.

وظنت للحظة انه سيقع لكن حين سارعت اليه ابعدها عنه وتمتم في خشونة:

«اني بخير. لقد آذيت كاحلي فحسب، ضرر بسيط لا يستحق الشوشرة. ارجوك ان تتفضلي».

استدار فتبعته الى قاعة الجلوس كانت، بخلاف الردهة، مكتظة وتشوشها كتب وصحف مبعثرة في كل مكان. لكنها لم تحفل بذلك. توقفت معه قرب النافذة المفتوحة حيث استمر يتفحصها عن كثب.

قالت وهي تتململ متضايقة من نظرته الثاقبة:

«اني ابحث عن السيد فريزر. جون فريزر».

ظل صامتاً فتابعت في عصبية:

«لدي رسالة له، من امي. هل تعرف هذا الرجل؟».

اومأ بالايجاب، وذعرت سو لما اكتسى وجهه من صدمة وذهول. وسألها بصوت غريب:

«ما اسم امك. هل هو هيلين غرينجر؟».

«اجل كانت تدعى هكذا».

«كانت؟ هل تقصدين ما اظن انك تقصدينه؟».

اومأت برأسها كيلا تتلفظ بالجواب، ولم تندهش كثيراً حين قال في جمود:

«كانت زوجتي ايضاً».

لم يصفعها الوعي الكامل للحقيقة إلاّ حين سمعته ينطقها. اغرقتها الصدمة. فراحت تشخص اليه والعذاب يغمق عينيها ويشحب وجنتيها. هل هذا الرجل والدها؟ شبهها قد يكون عرضياً. فبأي طريقة تتأكد من الحقيقة؟

كان مثلها مزتجاً. بدأ يقول شيئاً ثم عدل عنه . . . امسك ذراعها بلطف وقادها الى حيث الموقد. تمالك نفسه وقال في هدوء:

«من الافضل ان تجلسي يا عزيزتي. وقبل ان نخوض الموضوع يستحسن ان تعطيني الرسالة. اعرف انك ابنتي قبل قراءتي لمضمونها فشكلك يؤكد لي ذلك».

اكتنفتها الحيرة وهي تجلس قبالته في حذر. لم تجرؤ على النظر المباشر اليه. تناولت الرسالة من حقيبتها وسلمتها اليه وقد ازمعت جزئياً على ان تبقيها معه. ورجوعاً الى الماضي القريب عاد اليها تحذير تيم عالياً وواضحاً. ولكن كيف كان لها ان تعرف بان جون فريزر قد يكون اباها! الآن ادركت كما ادرك جون، بدون مطلق شك، وقبل ان تقرأ الاثبات الاضافي على الورق، بانه ابوها! استرقت اليه النظر وهو يقرأ الرسالة. كان طويلاً ونحيلاً، او بالاحرى واهياً، لكن بمجموعه كان حسناً، من نوعية الرجال ذاتها التي طالما تصورت اباها ينتمي اليها. لماذا، لماذا، تساءلت في قنوط، لماذا لم تخبرها امها الحقيقة ابداً؟ هل يعقل ان يستطيع احد الاقدام على خداع قاس كهذا؟ ثم كيف استطاعت امها ان تحفظ سراً كهذا طوال الوقت!

بالنسبة الى دور ابيها في التمثيلية فلا يسعها ان تحزر. هناك أشياء كثيرة لا تفهمها وقد يكون من الأفضل الا تحاول. ربما يحاول أبوها ان يفسرها بعد انتهائه من القراءة.

وكأنما تكهن بافكارها، رفع جون رأسه ثم طوى الرسالة وناولها اياها قائلا:

«لا أدري اذا كان يحق لي بأن أدعك تقرأينها يا سوزان، لكنها قد تفسر لك بضعة أشياء لا بد ان تعرفيها. فكلانا، أنا وأمك، لم نفلح كثيراً في واجباتنا تجاهك».

كان صوته واهناً بعيداً، وكأن مضمون الرسالة هزه كثيراً، شعرت بأنها كانت تشهد عذاباً شخصياً لا يمكنها المشاركة فيه، فأشاحت بصرها عنه، وحدقت الى الأوراق بين يديها، وانخرطت تقرأ التالي:

«شعور يخامرني منذ مدة طويلة، يا جون، بأن هناك شيئاً على وشك الحصول. فاذا كان حدسي صائباً، وهو لم يخذلني ابداً، فسوزان ستبقى وحيدة بلا معين. لهذا السبب أرسل اليك ابنتك. اذا ساورك أي شك في أبوتك لها، فما عليك إلا ان تتأمل رسوم العائلة، تلك المجموعة المضحكة في حوزتك، لتتأكد من الحقيقة. تركتك يا جون لأني لم أحبك يوماً، مع اني حاولت كثيراً كما تعلم. وحين تأكدت من حملي بسوزان، شعرت بضرورة الهرب. ولو لم اتركك آنذاك، لما سمحت لي بهجرك وأنا حامل بطفلة او ربما

بطفل. كان قراراً مصيرياً بالنسبة الي، لكني لم أندم عليه ابداً. لن احتاج النفقة بعد اليوم يا جون لأنه اذا قدّر لك ان تقرأ هذا فسأكون في عداد الأموات، انما هناك سوزان التي أرجو ان ترعاها نيابة عني، وأن تسكنها معك اذا اقتضى الأمر، اعتقد اني ما استطعت ابداً ان ازودها بالحنان كما يجب، فلعلك تفعل ذلك ايضا. . .

كان هناك المزيد ولا شيء فيه ينير الطريق. الرسالة بحاجة الى تشريح لاستخراج الاستنتاجات والمعلومات المطلوبة، لكنها شعرت ان تشوشها الذهني يحول دون ذلك. سقطت الأوراق من أصابعها الرخوة فيما اخذت عواطفها تتكور وتتمدد في داخلها. لم تتوقع مطلقاً ان تعلم بوجود أب لها هنا، ما يزال حياً يرزق وليس كما جعلتها امها تعتقد. لقد كابدت الكثير ويصعب عليها هضم هذا النبأ الجديد فوراً. حتى حزن والدها، لم تقدر لغاية الآن ان تسبر عمقه، فاكتشافه لوجودها قد يقلب دنياه رأساً على عقب.

وقال جون فريزر وكأنه شعر بحاجتها الى التطمين:

«سوزان، قد يكون أسهل اذا بدأنا من البداية. أريدك ان تفهمي ان دهشتي تماثل دهشتك، والفرق الوحيد هو اني اكبر منك سناً وبالتالي اكثر قدرة على تحمل الصدمات، إلاّ اني اقر بأن النبأ رنحني نوعاً».

فرمقته بشيء من القنوط وقالت:

«سأذهب ان شئت. انك لن ترغب حتماً ببقائي بعد كل هذه السنين».

ثم اضافت برنة غضب مفاجئة:

«وانا نفسي لست متأكدة من رغبتي في البقاء».

فأجاب وهو يبتسم قليلاً:

«لنؤجل هذا الحديث الى وقت آخر».

ثم تابع بصوت أمتن فيه خيط رفيع من السلطة الأبوية، وعيناه لا تفارقان محياها المضطرب:

«ما رأيك لو استعرضنا الأمر بايجاز. الوقائع المطلوبة فقط، ثم نعود الى التفصيل في وقت آخر».

شعرت ببوادر النفوذ في كلامه فانكمشت في مقعدها، وانتظرت في خضوع. كان يبحث في مشقة عن الكلمات المناسبة فتعمق التقطيب في

جبينه المجعد. ولأول مرة منذ وصولها، نسيت همومها الخاصة لتفكر قليلا بضخامة همومه، فاذا بقلبها يرق فجأة لمرأى الاعياء المتناهي يجلل وجهه.

نهض بشيء من الصعوبة بسبب كاحله الملتوي، ووقف عند الموقد مديراً ظهره للنار وقال:

«تزوجت أمك عندما كنت في الجيش يا سوزان. كنت الابن الثاني لأبوي، والخدمة العسكرية كانت مهنتي. امك أحبت تلك الحياة المرتحلة من مكان الى آخر، ومعظم اجازاتي كنا نقضيها في لندن، او خارج الوطن اذا صدف وجودنا هناك. في تلك الفترة، لم تأت امك الى غلينرودن سوى مرة واحدة، حين كانت جدتك على قيد الحياة. لم تنسجم في غلينرودن ولا مع أمي. فهل حدثتك بشيء عن ذلك؟».

هزت سو رأسها سلباً. كانت مستغرقة في الاصغاء ومتلهفة الى سماع المزيد. فتابع:

«كان يجب ان احسب، لكني لم استطع التكهن بأن أخي سيرحل قبلي. كان لا مناص لي من العودة الى مسقط رأسي لادارة الاملاك».

صمت قليلا فتجرأت سو على السؤال:

«ألم ترافقك امي الى هنا؟».

«أجل، لكنها تركتني بعد فترة قصيرة وذهبت لتعيش مع امها. عادت بعد وفاة امها، لا ادري لماذا رجعت بعدما عجزت من قبل عن اقناعها بالعودة. على اي حال، قررنا ان نحاول ثانية لكن المحاولة فشلت. وفي آخر مرة لحقت بها لأرجعها، تشاحنا بعنف وبعد ذلك ألقيت سلاحي. استطعت بالطبع ان أدفع لها نفقة شهرية منتظمة، لكن في آخر مرة حاولت الاتصال بها بواسطة عنوانها القديم فاتضح لي انها باعت البيت وانتقلت الى مكان آخر، ولم تطلعني بعد ذلك ابداً على مكان اقامتها الجديد».

«ألم تفكر مرة في الطلاق؟».

«كلا. عرضته عليها في لقائنا الأخير ذاك. لكنها بدت بعيدة التفكير عنه، او ربما هي رفضته بسببك أنت. فكما قالت في رسالتها هذه. لو اني عرفت بحملها بك لكانت الأمور اختلفت تماماً».

غزت المرارة صوته فخرج قاسياً وهو يضيف:

«ما كان يجب أن أسهى عن امكانية الحمل. الآن فات الأوان عشرين

سنة ونيف».

«عمري في حدود ذلك».

همست وهو يتفحص تقاسيمها الشابة في وجوم. وأضافت:

«قد لا يجدر بي أن أقول هذا، لكني اعتقد ان أمي ما أحبتني كثيراً في الحقيقة، وهذا يزيدني حيرة في كلامك».

«أمك كانت تجنح الى حب الذات والتملك يا سوزان. كلنا هكذا الى حد ما، لا أريد ضربها الآن بحجر وبخاصة بعد موتها. ربما لم تحبك في العمق بسبب شبهك الشديد لعائلتي، فأنت في الواقع، تكادين تكونين نسخة طبق الأصل عن أمي، وبالتالي، كانت تراها فيك كلما نظرت اليك، ولا يجب ان تلوميها كثيراً اذا استنكرت ذلك».

وفي شرود، طارت أفكارها الى تيم فتذكرت تعليقاته التهكمية القاسية. ولكي تطمس الذكرى سارعت الى السؤال:

«ألم تفكر مرة في بيع الأملاك؟».

رأته يجفل، وانتابها الفضول حين تورد خداه الشاحبان وبرز تحفظ مفاجيء في عمق عينيه. قال:

«الأراضي لا تباع بهذه السهولة يا سوزان. هذه الأملاك يحصر ارثها، ولكن كانت هناك مشكلات استغرق حلها سنوات كان ذلك قبل موت اخي، ثم جاءت مصاريف الوفاة وأكلت قسماً منها».

كان صوته ثابتاً وقد زال التوتر من وجهها. لم تقصد سو ان تتحشر في أملاكه وقد يصعب عليها اخباره بأنها ترغب في طي موضوع امها. ربما تخبره ذلك في وقت آخر، عندما يتعرفان الى بعضهما اكثر، وحيث عليه ان يؤكد للمصرف بنفسه ان ذلك التأمين الغامض كان نفقة أمها في الواقع. التفاصيل المطلوبة يجب ان ترسل الى لندن، انما ليس الآن. يكفي انها هنا، وأن هذا الرجل مستعد لتقبل بنوتها تقبلا مطلقاً. عاطفة جديدة، ومحيرة في حدتها غمرت قلب سو. لقد بدأت في لاوعيها تعتبر غلينرودن وطنها الأصلي.

وكأنه تابع مسلسل أفكارها وحبذه، فقد اضاءت فمه الصارم، ولأول مرة، ابتسامة دافئة، واستقرت عيناه . . . على وجهها المتوتر.

وقبل ان تحاول شرح مشاعرها، قال في رقة:

«لنعالج الموضوع خطوة خطوة يا سوزان. كلانا، شاء أم أبى، يواجه وضعاً غير عادي، وقد يكون من الأفضل ان نتعرف الى بعضنا تدريجياً، فكلانا يدرك وجود العناصر الأساسية الكفيلة بانجاح هذه العلاقة. انه شعور رائع بالطبع ان أعرف بأن لي ابنة، وبوسعي ان أصفح عن أشياء كثيرة مقابل امتياز كهذا. آمل فقط يا عزيزتي الا تحذي حذو امك من حيث كرهها لبراري اسكتلندا، فأنا أتوقع بالطبع ان ترسي جذورك ههنا».

اومأت برأسها صامتة وأثرت فيها كلماته بغرابة حين لمست فيها خيطاً من الحساسية المدركة كانت تفتقدها تماماً في طبيعة أمها. تنفست بعمق وقالت بعد ان أشاحت بصرها عن وجهه المتعب:

«قد استطيع مساعدتك في ادارة الأملاك».

«الأملاك. . . .».

وهنا تصلب صوته وعاد اليه التوتر، ثم فجأة، شاب اعياءه تهكم غريب حين تابع:

«لدي شريك يا عزيزتي، رجل كفوء للغاية، ولا أعتقد انه سيرحب بمساعدتك. انه يعتني بكل شيء هذه الأيام، يوفر عليّ كثيراً من الوقت والازعاج فانصرف الى اهتماماتي الخاصة».

«ولكن هناك أعمالا أخرى كثيرة بالطبع. . . أقصد». احتارت في ايجاد الكلمات المناسبة ثم تابعت: «ألست انت الذي يشرف على كل شيء؟».

«في الواقع. أنا مشغول بكتابة اطروحة عن المناورات العسكرية ابتداء من العام ١٧٤٥. انها تحتاج ابحاثاً كثيرة تشغلني باستمرار، لكنها لا تمنعني من زيارة الأملاك بين حين وآخر».

غشت الحيرة عينيها الدخانيتين، وبرغم ان التعقل حذرها من مغبة الاسترسال في الموضوع إلا ان شيئاً عنيداً في داخلها تغلب على التحذير، فقالت وهي تحدق الى ما حولها، فيما الانطباعات والأفكار تتراكم وتغوص في ذهنها المرهق:

«أعتقد انك لم تعش في هذا البيت دائماً، بل كنت تقطن البيت الآخر الذي رأيته من خلال الأشجار».

«لم لا تطلب اليها ان تلتزم شؤونها الخاصة يا جون، بدل ان تقف أمامها مسلوب الارادة؟».

قفزت سو في مقعدها وتوحشت عيناها لدى سماعها ذلك الصوت الذي كان يرعد في تهديد مكشوف، قائلا لها بمنتهى الوضوح انه عدوها. كم من الوقت كان يقف هناك؟ توقفت نبضاتها ثم ارتجفت. لم تكن في حاجة لأن تنظر اليه لترى انه الرجل الذي كان في الفندق، وعلى الصخرة. كان ميريك فيندلي!

«لا عليك يا ميريك. . . .».

كلمات جون أكدت ظنونها مع انها بدت عاجزة عن سماع أي شيء عبر ضجيج قلبها. صفعتها قوته حين هاجمها بعينيه المليئتين بازدراء لا يفسر. . . من الواضح انه يعتبرها عدواً، وهذا أسوأ من تصرفه المحيّر في الليلة السابقة، وحيث لم يكن عداؤه واضحاً الى هذا الحد.

نقل جون فريزر بصره بين الاثنين، ثم رأته سو يعود ويجلس على مقعده، وعلى وجهه تساؤل وحيرة. جمعت شتات نفسها في صعوبة وقالت في برود:

«اعتقد ان السيد فيندلي مخطىء في استنتاجاته، بل أعتقد ايضا انه مدين لي باعتذار، الا اذا استطاع تقديم تبرير منطقي!».

فقاطعها أبوها بدهشة واضحة:

«لحظة يا سو! أنا الذي يحتاج ايضاحاً. انكما تعرفان بعضكما على ما يبدو لكن يؤسفني ان أراكما تتخاصمان».

فقال ميريك فيندلي بشراسة:

«لم ألتق هذه الفتاة الا مساء أمس يا جون، بيد اني عرفت فوراً من تكون».

أجاب جون وعيناه ترمشان في ارتباك متزايد:

«انها ابنتي، ولم يكن بوسعك ان تعرف ذلك».

فردّ ميريك متجاهلا وجه سو الثائر:

«لم تعرفني بنفسها يا جون وما أزال أجهل اسمها. لكني أدركت من شكلها انها تمت بقرابة الى العائلة. كنت واثقاً من انها ستأتي اليوم الى هنا ولقد رأيتها بأم عيني قادمة، وكان يجب ان أكون هنا لأمنعها من الدخول».

فقاطعه جون باصرار هادىء:

«أما سمعتني أقول انها ابنتي يا ميريك؟».

«لا يهمني ما تدّعيه هي ما دمت أنت لا تصدق زعمها الا باثبات. دائماً كنت طيب القلب يا جون وما تزال. اجمع ما تشاء من أنواع الأقرباء، لكن لا تقل يوماً باني لم أحذرك منهم».

غلى الدم في عروق سو واتقدت عيناها بغضب عاجز. هذا الرجل يعتبرها مخادعة، وحتى لو كان مصيباً في افتراضه، فلا يحق له مطلقاً ان يكون وقحاً الى هذا الحد. تصرفه دل على اكثر من سوء خلق. كان يقصد الايذاء وكأنه مصمم على تحطيم علاقة ما تزال هشة ليسقطها تحت حوافر هجومه المدروس. والوميض في عينيه، ان دل على شيء فعلى استمتاعه التام بحملته التحطيمية هذه!

واجهته بنظرة مباشرة وردت في حرارة برغم الرجفة الخفيفة في صوتها:

«ثق يا سيد فيندلي باني ما زرت هذا المكان الا بدافع رسمي، وباني فوجئت بأبوة جون فريزر لي، مثلما فوجئت أنت تماماً. اما بالنسبة الى بقائي أو رحيلي فهو ليس من شأنك على الاطلاق!».

خيّم صمت تام بعدما انهت كلامها. عبر ميريك الغرفة وارتكز على حافة الطاولة بدون ان يسلخ بصره البارق عنها، فكادت تحس جسدياً بوقع شخصيته الصلبة. كانت وكأنها ذبابة يستعد لسحقها حين احتواها بنظرة شاملة، مزدرية وباردة، وقال:

«لكنك صممت على البقاء يا آنسة. ايه، هل أقول فريزر؟».

فتدخل جون بجرأة يقول:

«بالطبع ستبقى يا ميريك. لو انك تهدأ قليلا لأفسّر. . . .».

«بالطبع ستبقى». ردد ميريك ساخراً، وعيناه تعودان الى جون وكأن سو غير موجودة وتابع:

«ستبقى حتى تتأكد من اعجابها بالمكان، وان لم يعجبها تقفل عائدة الى لندن!».

«لن أفعل ذلك ابداً!».

هتفت سو ثائرة وصدرها يغلي كالبركان. انها تستطيع على الأقل ان تواجه اعداءها، واذا كانت ستبقى، فلتبدأ معركتها الآن وقبل ان يسيطر عليها السيد فيندلي! وقفت قربه، فرأت نفسها منعكسة في عينيه الساخرتين وشعرت بضآلة حجمها أمام ضخامته. لكنها ستريه ان عنفوانها

كفيل بتعويض هذا الفارق. كان واضحاً انه يسيطر كلياً على جون فريزر! التفتت الى جون وضايقها ارتباكه. فقالت والشرر يتطاير من عينيها الثائرتين:

«هل تسمح لمديرك دائماً بأن يسيطر عليك بهذا الشكل؟».

«سوزان!».

هتف والدها ثم ساد صمت مكهرب. توردت وهمدت ثورتها فجأة. يبدو انها اقترفت خطيئة كبرى ويجب ان تعتذر. لكن أباها تابع ووجهه يشحب في غرابة:

«سوزان، سبق وأفهمتك ان ميريك شريكي».

فأجابته وهي تطرف حائرة:

«لكنه شريك مسيطر. أليس كذلك؟ اني اعتذر عن وقاحتي و خاصة اني جديدة هنا. ولكن السيد فيندلي لم يكن دمثاً بدوره».

فقال ميريك في برود:

«قد تكون سوزان مصيبة يا جون. وبدلا من التعارك السوقي، أفضل ان اتفق واياها على هدنة، ولا شك اننا سنجد وقتاً وفيراً للتفاهم في ما بعد. اني أعلم انك متزوج يا جون، وبالتالي، من المحتمل جداً ان تكون لك ابنة. لنقفل الموضوع الآن ولنبحث الترتيبات بشأن المنامة».

فقالت سو في جمود:

«لم أفكر في مكان النوم، وحتماً سأجد غرفة في القرية».

فقال جون فريزر:

«لن تذهبي الى القرية يا سو، فهذا بيتك، ومن اليوم فصاعداً تعيشين معي. لا أريد أن أخسرك وأنا بالكاد وجدتك».

بدا متعباً واهناً فتملكها ندم ثقيل. فالنبأ الذي أتت به أزعجه ولا شك برغم انه لم ير امها منذ سنوات طويلة. انتابتها رغبة مفاجئة في البقاء كي تعتني به، وهو يحتاج بالطبع الى من يرعاه لكونه يعيش وحيداً في هذا البيت. وتمنت فقط لو يختفي ميريك فيندلي بدل ان يقف كالمارد فوقها، وبذلك التعبير المتعالي على وجهه، كي يتمكنا من التفاهم في ما بينهما.

خاب أملها وهي ترى ميريك يتمخطر صوب النافذة ثم يقف عندها والأفق الغارب خلفه. ظنت للحظة انه على وشك الاستئذان ثم الرحيل،

لكنه تأمل الفضاء قليلا، واستدار اليها قائلا:

«تعلم يا جون ان لا مكان هنا لاقامة سوزان، لكن هناك غرفاً كثيرة في البيت الآخر. غرفتك ما تزال . . . منذ الاسبوع الماضي، واذا انتقلنا فوراً فقد نجد السيدة لينوكس ما تزال هناك لتهيىء العشاء لسوزان».

«أرجوك».

قالت في ارتباك، لكن وجهه الوسيم ظل قاسياً. أدركت غريزياً انه كان معتاداً على السيطرة، فما عليه الا ان يعطي الأوامر كي يسارع الناس الى تنفيذها. حسناً، سيجد الآن نفسه امام شخص لا ينفذ! أشاحت بصرها عن عينيه القاتمتين المتحديتين وليس بدافع الخوف، فهي مستعدة جداً لمقارعته اذا شاء المقارعة ولن يجد فيها شيئاً من خنوع أبيها. قالت:

«اذا كان هذا الكوخ صالحاً لاقامة ابي فهو يصلح لي ايضا. لن أعجز عن ايجاد مكان أنام فيه وبدون ان نزعج السيدة لينوكس هذه».

استدار ميريك حانقاً الى شريكه وقال في نفاد صبر:

«جون! هل لك ان تفهم هذه الفتاة بأن كيلي طفح بدون ان تضيف اليه هدرها لوقتي؟ أخبرها ان الغرف العليا نستعملها كمخازن لمختلف الأشياء القديمة البالية، وأن غرفة النوم الأرضية الوحيدة ليست في حالة أفضل. قد نحتاج شهراً لافراغ الغرف، وليس لديّ وقت أضيعه الآن في الجدل».

ضايق سو ان يوافق ابوها تماماً على كلامه حين قال:

«ميريك على حق يا عزيزتي. الاقامة هنا غير مريحة. فأنا استعمل هذا البيت كمكان هادىء للكتابة، عندما أكتب، ولم أهتم بترتيبه كما يجب. اني، كما ترين، أعتمد على ميريك أكثر من اللزوم».

هذا واضح جداً. . . قالت في نفسها غاضبة. ولكن هل من الضرورة ان يكون أبوها خاضعاً الى حد الخنوع؟ أما يجب ان يصدر هو الأوامر بصفته صاحب الأملاك؟ ربما كان من واجبها، ولو لفترة على الأقل، ان تبقى، وتساعده على استعادة ثقته التي سلبه اياها هذا الطاغية. وربما في البيت الآخر، تصبح في مركز افضل يمكنها من وضع السيد فيندلي عند حده!

توردت وجنتاها بلون دفاعي وهي ترمق ميريك وتقول بصوت حريري:

«سأفعل باقتراحك اذا كان ذلك يسر أبي، على ان نعود للاقامة هنا بعد فترة معقولة، فأنا لا أرغب في البقاء تحت بصرك لمدة طويلة يا سيد فيندلي!».

٣- فراشة معتقلة في دبوس

في الصباح التالي استيقظت على سريرها العريض المظلل، وسمحت لنفسها بعشر دقائق من الترف تقضيها مستلقية تفكر. تعب الليلة الماضية زاولها، واتسعت عيناها وهي تنظر حولها الى الغرفة الواسعة الجيدة الأثاث، وتكاد تقرص جلدها لتصدق اسطورة وجودها هنا.

غرفة نومها كانت حقاً كغرف القرون الوسطى، أو هكذا بدا لها، لاعتيادها على الشقق العصرية وخزائنها الداخلية البراقة. الأثاث حولها، لا يبدو انه قد تغيّر منذ مئة سنة! خزائن ضخمة غامقة، طاولة زينة واسعة ذات مقابض نحاسية ومغسلة بدين ايضا، قوامها أبريق وطشت من الخزف. كلها كانت تحيط بالسجادة المربعة الباهتة التي نسجت لتدوم طويلا، ربما لمئة سنة أخرى على الأقل! انها لم تر أثاثاً كهذا من قبل عدا في البيوت الريفية الاثرية التي كانت تزورها احياناً، وحتماً لم تتصور مطلقاً ان تمكث في احدها ولو لبضع ليال.

تساءلت بفضول عن شكل سائر الغرف التي لم تر منها سوى المطبخ ليلة أمس. . . فقبل ان يغادروا الكوخ، وفيما كان جون يجمع بعض حوائجه، اتصل ميريك بالبيت الكبير هاتفياً، ولما وصلوه كانت السيدة لينوكس قد هيأت العشاء ثم صعدت لتهيىء غرفة سو التي تناولت الطعام بمفردها على طاولة المطبخ. أبوها استأذنها في الذهاب فوراً الى فراشه بعدما شكا من كاحله المبرح، اما ميريك فيندلي فقد اختفى معه، ولم يرجع إلاّ بعدما غادرت سو المطبخ لتبحث عن السيدة لينوكس. كان التعب يرنحها، فوقفت خارج باب المطبخ لا تعرف في أي اتجاه تسير. ولم تكد تسمع

شخصاً يعبر الردهة حتى وجدته واقفاً قربها. رمقها آنذاك متفحصاً وقال في سلاسة:

«غرفة جون الى جانب الردهة. الباب الثالث الى اليمين. أتودين رؤيته قبل ان تصعدي؟».

«نعم، بالطبع». أجابته متلعثمة، ونظرته الفولاذية تعيقها عن النظر اليه بامتلاء. فعلى الرغم من كل ما قيل، شعرت بأنها ما تزال غريبة. صحيح انها وجدت والداً، لكنها لم تشعر بعد بعاطفة قوية نحوه، ولذا غمرتها خشية غامضة من فكرة الذهاب اليه.

«ليس الأمر سهلا، أليس كذلك يا آنسة سوزان؟».

نطق الكلمات بخشونة فازداد شعورها بالارتباك. وردت عليه حينها بغضب قائلة:

«وكيف له ان يكون سهلا؟ لو كنت مطلعاً على الحقائق لاستطعت ربما ان تتفهم موقفي».

«ولقد شرح لي جون اموراً كثيرة حين رافقته الى غرفته. لم تكن صعبة الادراك، لكنك بدأت تكتشفين أن الحقائق والعواطف شيئان مختلفان، أليس كذلك؟».

«ربما أنت على حق».

«لو كنت مكانك لنظرت الى الوضع نظرة طفل ربيب يقابل، لأول مرة، اباه بالحضانة، فلعل ذلك يخفف ارتباكك».

«ولكن مع الآباء بالحضانة لا تكون هناك. . . روابط دم».

«روابط الدم ليست دائماً مهمة كما يحلو لنا ان نعتقد. روابط العشرة هي الأكثر أهمية في معظم الأحيان، وهي ما تزال مفقودة بينك وبين أبيك، وقد تظل مفقودة الى الأبد».

وقتها، ابتعدت عنه متعثرة دونما تعليق، وكرهته قليلا بسبب قسوته، وعجزت في الوقت نفسه عن نفي الصحة في كلامه. لقد نجح ربما في تبديد شيء من حيرتها الذهنية لكن ذلك لم يخفف نفورها منه.

«ألق عليه تحية المساء بالنيابة عني، من فضلك». قالت له وهي تستدير راكضة على السلم.

لم تتذكر تماماً كيف آوت الى فراشها. تذكرت فقط ان السيدة لينوكس

نزعت عنها ثيابها بيدين خبيرتين، وبسرعة وجدت نفسها في السرير. ايضا تذكرت كلامها حين تأملت وجهها المتعب وقالت باسمة:

«غداً تشعرين بالتحسن يا عزيزتي. كنت ممرضة وأعرف هذه الأمور. السيد فريزر اطلعني على النبأ السار، وسررت اكثر لكونك جميلة جداً، ولطالما تساءلت عما سيكون عليه شكلك».

كلمات غريبة، وتبدو الآن غير قابلة للتفسير. قطبت سو حاجبيها وهزت كتفيها. ربما كانت السيدة لينوكس مرهقة ولذا صاغت آراءها بطريقة خاطئة. في أي حال، ستستوضحها قصدها بعد ان تشرب الشاي. حنينها الى كوب من الشاي جعلها تتساءل عن الوقت. ولما راحت تبحث عن ساعتها تذكرت قول السيدة لينوكس بأنها ستتغيب اليوم عن العمل. اذن لن تأتيها بشاي الصباح. الساعة جاوزت السابعة ويجب ان تسارع الى الاطمئنان عن جون.

طرق الباب فجأة، وقبل ان تسمح للطارق بالدخول، فتح ميريك الباب ودلف الى الغرفة. فوجئت بدخوله، وما ان تدثرت بالغطاء، حتى وجدته يحلق فوقها ويلقي بفنجان من الشاي على طاولة السرير. وفي غمرة جيشانها، سمعت نفسها تشكره فيما كانت عيناه تنهشان وجهها بنظرة آمرة جعلت رأسها يلتصق بقسوة بالوسادة كفراشة معتقلة في دبوس.

تجاهل شكرها وقال بلا مواربة:

«اشربي الشاي بسرعة. السيدة لينوكس غائبة، ووالدك متوعك الصحة. ربما أنت مسؤولة جزئياً عن اعتلاله فعليك ان تساهمي في العناية به».

قفزت جالسة فانزلق الغطاء من بين أصابعها الواهية، كاشفاً معالم جسمها المتقلص من خلال قميص نومها الحرير الرقيق.

«ماذا تعني بأنه متوعك؟».

سألت بصوت حاد وهي تتجاهل الشاي. فتناول الفنجان وأجبرها على حمله وقال في ايجاز:

«اشربيه، فوجهك الباهت يدل على حاجتك اليه. لا أريد ان أعتني بمريضين دفعة واحدة. اني رجل مشغول، وهذا التباطؤ الأنثوي يقتل الوقت».

كادت ترفض الانصياع لأمره، ثم غيّرت رأيها... اذا اطاعته فقد يشرح الأمر ويخرج. جرعت الشاي وكادت تتشردق به حين استمر يتفحص وجهها مستكشفاً، فأخفت ذعرها تحت صوتها الفاتر وهي تجيب:

«اعتذر اذا كنت أضيع وقتك، انما لماذا تعتبرني المسؤولة عن اعتلال والدي؟ لقد التوى كاحله قبل وصولي، على ما أعتقد».

«الأمر لا يتعلق بكاحله بل بقلبه، وقد عاده الطبيب مساء أمس بعد ذهابك الى الفراش».

«كان يجب ان تعلمني!».

«ولماذا أعلمك؟ وماذا كان بوسعك ان تفعلي؟ أنا معتاد على نوبات جون، وأنت كنت مرهقة بما فيه الكفاية».

اذن هو لاحظ وضعها. ملاحظته هذه، ازالت، بشكل ما، بعض الصقيع المحيط بقلبها.

«كان من الجائز ان يموت».

فأجاب رافضاً اعطاءها التطمين الذي تنشده في أعماقها:

«من الجائز ان يموت في أي يوم، فهناك أشياء تخرج احياناً عن سلطة الارادة البشرية، وهذا ما سيشرحه لك الدكتور ماكروبرتس حتماً. واذا رغبت في مزيد من التفسيرات، فقد يسرك ان تعلمي بأن الطبيب الطيب كان دارياً بقصتك منذ البداية».

«من البداية؟».

«اذا ظللت ترددين ما أقول، فقد يفقدني ذلك تعقلي، وبخاصة اذا استمريت تنظرين الي كما تنظرين الآن».

«أرجوك...».

لكنه هز كتفيه وانتابتها البرودة مجدداً حين قال:

«يبدو ان أمك كانت استشارت الدكتور ماكروبرتس منذ سنوات طويلة. قبل ان تهجر غلينرودن، لكن حجب هذه المعلومات لم يعجب جون على ما يظهر، ويبرر الدكتور ماكروبرتس صمته بأن المبدأ المهني لم يسمح له باطلاع جون على الحقيقة في حينها. ربما استطعت أنت ان تقنعيه بوجهة نظر الطبيب».

«السيدة لونيكس قالت...».

قطعت عبارتها لعجزها الكامل عن استيعاب ما قاله ميريك وقفز ذهنها الى الليلة الفائتة.

«ماذا قالت السيدة لينوكس؟».

«قالت انها طالما تساءلت عما سيكون عليه شكلي. فكيف بامكانها ان تعرف؟».

«أعتقد ان السيدة لينوكس كانت تعمل عند الطبيب كممرضة وكموظفة استقبال قبل ان تتزوج وتترك غلينرودن، ولا شك انها عرفت بالحمل من ملفات العيادة».

«والآن عادت الى العمل؟».

«أجل، انما ليس عند الدكتور ماكروبرتس الذي استخدم ممرضة أخرى منذ وقت طويل. على كل، السيدة لينوكس ترملت الآن ولم تعد شابة. انها تملك كوخاً وتساعدنا هنا، وخبرتها في التمريض تفيدنا حينما يمرض جون».

خيّم صمت قصير، كانت سو في خلاله تغربل المعلومات في ذهنها وتصطدم بتعقيداتها. لا شيء يبدو صافياً كالبلور، عدا حقيقة واحدة أنارت بعض الشيء رؤياها الملبدة. قالت وكأنها تتساءل:

«يبدو، بدون أدنى شك، اني سوزان غرينجر، فريزر».

ابتسم قليلا وأجاب:

«مئة بالمئة. ولو كنت مكانك لاستغنيت عن اسم غرينجر. لم يعد ضرورياً».

«لست واثقة بعد مما سأفعله. هل عرفت هويتي ليلة التقينا في الفندق؟».

«لنقل اني عرفت بأنك من عائلة فريزر، ولعلمي بضعف قلب جون فقد اذعرني الاكتشاف. في الوقت الحاضر، أرتأي ان نتوقف عند هذا الحد. اما في هذه اللحظة فأقترح ان تنهضي من فراشك».

عادت القسوة الى صوته، تثير فيها امتعاضاً وتحسسها بأن ميريك فيندلي قد يكون عدواً أكثر منه صديقاً. انجذابها اليه في الفندق، ذلك الانجذاب القصير والخطير، زال الآن، وشعرت بومضة ارتياح لزواله. صحيح انه ساعدها على استجلاء أمور معينة لكنها ترفض الآن ان تريه ذرة من

الامتنان. قالت برقة:

«حالما تخرج من الغرفة، سأنفذ اقتراحك بسرور».

وأخيراً خرج وتنفست الصعداء! استحمت وارتدت ثيابها، وأفكارها تنتقل جيئة وذهاباً بين جون وميريك. وقررت أخيراً ان ميريك فيندلي شخص تقضي الحكمة بعدم الوثوق به، وانه، بالنسبة الى مصالح ابيها، شخص من الأفضل ان تتحرى عنه. قد تبدو وقحة وطامعة بالرزق ان هي اظهرت الآن حشرية زائدة في شؤون ابيها لكنها ستأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار. اجل، قليل من التحري الذكي لن يسبب لها أي ضرر. منذ تدهورت صحة جون، اضطر على الأرجح لأن يسلم هذا الرجل مقاليد الأمور. الآن يوجد من يساعد جون، شخص من لحمه ودمه. قد يكون السيد فيندلي شريكاً له بشكل ما، انما الويل له اذا حاد خطوة عن حدوده. وهي ان لم تقدر ان تحب اباها لغاية الآن، فهناك طرق أخرى تثبت من خلالها انها ابنة بارة.

تدعمت قليلا بهذه الأفكار الشجاعة انما البعيدة كثيراً عن الواقعية، فارتدت بسرعة فستاناً قطنياً، وسرحت شعرها بضربتين من الفرشاة وهرولت الى أسفل.

لم تلتق بأحد، وسرها انها تعرف مكان المطبخ. لكنها ترددت قبل ان تفتح بابه وهي تنظر الى الساعة الكبيرة على حائط الردهة. كانت تجاوز الثامنة. أليس من الواجب ان تطمئن قبلا على والدها؟ لا شك ان ميريك، بكفاءته الواسعة، قد حمل له فنجاناً من الشاي، لكنه قد يكون فعل ذلك في الصباح الباكر.

وبشيء من العصبية، عادت تعبر الردهة بمنتهى الهدوء. تذكرت ارشادات ميريك، فأحصت بابين ثم طرقت الثالث بلطف. ولما لم تتلق جواباً، ادارت المقبض، ودخلت الغرفة، فوجدت جون فريزر غارقاً في النوم. شعرت بالارتياح وأخجلها هذا الشعور قليلا. عادت تنظر الى الرجل النائم. لقد قضى ليلة سيئة على الأرجح فبدا مرهقاً. أحست بشفقة غير عادية تتحرك في قلبها وهي تتفحص وجهه المتعب، وعاهدت نفسها مجدداً على مساعدته بكل امكاناتها.

على الطاولة قرب السرير. كانت هناك صينية تحمل بقايا فطور خفيف.

من أتى بها والسيدة لينوكس غائبة؟ حملتها بسرعة، وخرجت تغلق الباب في هدوء واتجهت الى المطبخ.

وحالما فتحت بابه، احست بوجود شخص فيه لكنها استغربت ان ترى كارلوت كريغ تجلس الى النافذة تشرب القهوة وكأنها في بيتها! لم تتوقع أبداً ان ترى كارلوت ثانية أو بهذه السرعة، لذا أخرسها الاستغراب فيما كانت الفتاة تتأملها صعوداً ونزولا في برود ثم قالت:

«لو كنت مكانك لما وقفت على العتبة هكذا. ادخلي واغلقي الباب، فأنت تبدين قادرة على التسلل الى أماكن عديدة».

كان صوتها مهيناً، وعيناها معاديتين كما كانتا في ادنبره، واختيارها للكلمات عكس بوضوح منهج تفكيرها. كانت سو جائعة وبعيدة عن المودة هي الأخرى، لكن رقة فضول جعلتها تمسك لسانها عن اعطاء جواب قاس. كيف عرفت كارلوت انها هنا ولماذا جاءت؟ انها تسكن حتماً في الجوار حتى تأتي في هذا الوقت الباكر. من الواضح ان كارلوت تزدريها، كما في اللقاء السابق. لكن لماذا؟ هل هي مخطوبة الى ميريك فيندلي وبالتالي تعتبر سو غريمة متطفلة؟

وضعت الصينية ببطء على الطاولة الفسيحة، وهي تتمنى بحرارة لو انها على دراية اكبر بوضعية المطبخ، فلا يمكنها بحال ان تبحث عن مكان الأغراض وكارلوت تدرسها بهذا التحديق البارد المدروس.

«هل جئت تبحثين عن السيد فيندلي أم لتري والدي؟».

سألتها سو وهي تصارع اندفاعاً عدائياً في داخلها. فمن جهة، تريد تحسيس كارلوت بمكانتها كابنة لجون فريزر، ومن جهة ثانية، لا تريد الحياد عن تهذيبها المألوف، ولذا لطفت وقع كلماتها بابتسامة خفيفة.

لكن أملها بزعزعة كارلوت خاب، فقد لوت كارلوت شفتيها ازدراء، وكأنها استشفت خدعة سو بوضوح، وأجابت:

«التقيت بميريك على طريق الوادي، وحدثني عن زعمك بأنك ابنة جون. لم أتمالك فضولي، فجئت اتحقق الأمر بنفسي. أنا، على فكرة، ابنة عم جون».

«ابنة عم جون؟».

«أجل، فالناس لها ابناء عم كما تعلمين، وزعمي قد يكون أكثر صدقاً

من زعمك بمراحل».

«ماذا تقصدين؟».

«بالرغم مما يقوله جون أو الدكتور ماكروبرتس وحتى مما يحلو لميريك من أفكار اني اقصد ان أفضح امرك، ولو استغرقني ذلك شهوراً طويلة!».

وخرجت بدون ان تلتفت الى الوراء، صافقة الباب خلفها. ارتمت ساقا سو فطرحت نفسها على اقرب مقعد، وأحست برغبة في ان تحزم حقيبتها وترحل عن المكان بلا رجعة. لا عجب ان تهرب امها من هذا البيت اذا كان يعج آنذاك بالدسائس كما حاله الآن! أحست غشاوة على عينيها، فسارت متعثرة الى النافذة، وأسندت جبينها الساخن على الزجاج البارد، متندمة على ظنونها المتسرعة وعاجزة عن ضبطها. ونسيت لبرهة كلمات كارلوت التهديدية. عند الحائط المنخفض في الخارج، كانت أشجار الصفصاف تنحني بلطف لريح دافئة، داعية اياها للزيارة والاستكشاف. فتاقت سو فجأة الى الانطلاق، الى الطيران عبر حقل الخليج والتوغل صعوداً في الغابات، في العالم الذي تلمحه فقط من خلال الأشجار.

لكنها لا تستطيع، وتساءلت كيف استطاعت امها ان تهجر مكاناً كهذا.

تنهدت، واستدارت تبتعد عن النافذة، فوقع بصرها على رسالة قصيرة، كانت مركزة بين ابريق الشاي واناء الحليب على رف احدى الخزائن. كانت معنونة ببساطة- سوزان. فالتقطتها مرتبكة. كان الخط رجالياً، وقبل ان تفتحها حزرت انها من ميريك فيندلي. صدق ظنها وقرأت ما يلي:

«لا انصحك بازعاج جون، فهو سينام حتى موعد الغداء على الأرجح، ولحين عودة السيدة لينوكس. اكتفي باطلالة بسيطة لمجرد الاطمئنان. لن آتي في موعد الغداء، فلا تشرعي في تحضير أي شيء لي».

انتهت باقتضاب وكانت موقعة باقتضاب، فيندلي.

أحست بومضة ارتياح لأنها لن تراه لبضع ساعات على الأقل، وهذه فرصة لتعزز وسائل دفاعها ولتحاول ان تجد بعض الطعام لها. انه يتحدث عن الغداء وهي لم تتناول فطورها بعد! وبحركة غضب مسحت بقايا طعامه عن الطاولة وحملت الصحون الفارغة الى حوض الغسيل.

وأخيراً، حين وجدت شيئاً تأكله، استمر تصرف كارلوت الغريب يطن

في رأسها ففقدت شهيتها للطعام، وألقت شريحة الخبز جانباً. اذا كانت كارلوت ابنة عم جون حقيقة وتتوقع ان تتزوج ميريك فيندلي. فانها قد تتوقع ايضا ان ترث غلينرودن بكاملها، والأملاك حتماً شاسعة اذا قورنت بحجم البيت. وبمجيئها الى هنا، رأت كارلوت فيها تهديداً لمخططاتها، فلا عجب اذن ان تشعر ازاءها بالمرارة.

تنهدت بقلق وقفزت واقفة وبدأت تنظف المطبخ. أي شيء أفضل من الجلوس والتفكير في أمور حدثت ولا ريب قبل مجيئها الى هنا. لديها عمل كثير، ويجب ان تؤجل التركيز على دسائس ميريك وصديقته لوقت آخر. انخرطت في العمل، وبرغم ذلك، انتابها ألم غريب لما تخيلت ميريك على طريق الوادي، يخبر كارلوت كل شيء عنها.

عادت السيدة لينوكس قبل الثانية عشرة ظهراً وقالت لها مبتسمة:

«أجلت موعدي الآخر كيلا أتأخر عليك يا عزيزتي. فكل شيء غريب بالنسبة اليك والسيد فيندلي لن يجد وقتاً ليعرفك الى تفاصيل البيت».

فبادلتها سو الابتسام بامتنان. جون لم يستيقظ بعد. تفقدته مراراً ووجدته يتقلب في فراشه وهو نائم فشعرت في كل مرة بتخوف مذنب. فطمأنتها السيدة لينوكس بقولها:

«أحياناً ينام لساعات حين يمرض هكذا. لا عليك. سأهتم بأمره وأعرف تماماً كيف أفعل ذلك». وأضافت: «ولكنه قد يرغب في رؤيتك عندما يستيقظ، ومن الأفضل ان تظلي قريبة، فأنا أكيدة بانه سيطلبك انت قبل الجميع».

أومأت برأسها، وساعدت السيدة لينوكس في تحضير غداء خفيف قبل ان تصحبها في جولة داخل البيت. وقالت السيدة لينوكس وهما تنتقلان من غرفة الى أخرى:

«لا أدري اذا كان من حقي ان أفعل هذا، فانا لا أتأكد ابداً من المكان الذي يقيم فيه الماجور حقيقة. هل يقيم هنا أم في الكوخ».

«الماجور؟».

«أقصد والدك بالطبع. ألم تعلمي انه كان رائداً في الجيش النظامي؟».

«أجل، لكنني كنت أجهل رتبته».

أغلقت السيدة لينوكس باباً آخر وعادت مع سو الى المطبخ وهي تقول:

«لا بأس اذا جهلت بعض الأمور، فلا يمكنك ان تعرفي كل شيء دفعة واحدة. كيف وجدت البيت؟».

«اعترف بأنه من نوع البيوت الذي طالما حلمت به. حجمه معقول، مريح وشرح، مليء بالأثريات التي تبدو جميلة وقديمة في آن واحد. الجو بمجموعه يبدو لطيفاً».

«شعرت هذا بنفسي. انه بيت لطيف. السيد فيندلي يراه ايضا هكذا. لقد ابتاع بعض الأثريات الرائعة بنفسه على مر السنين. ربما دعاك الى مشاهدتها في ساعة فراغ».

«يبدو ان السيد فيندلي رجل دائم الانشغال».

خرج صوتها قاسياً فتحاشت النظر الى وجه الممرضة المتسائل. ولما لاذت السيدة لينوكس بالصمت أضافت سو:

«عندما يمرض أبي، اعتقد انه يأخذ كل شيء على عاتقه».

لم يكن هذا ما قصدته بالضبط، وعرفت ان السيدة لينوكس عرفت!

اتضح ان نوبة جون كانت قوية، فمضت عدة أيام قبل ان تتمكن سو من محادثته. وخلال هذه المدة، لم تبتعد كثيراً عن البيت، ولم تقدر ان تجد شيئاً يثبت ظنونها. ومع ان كارلوت زارت جون مراراً، وأظهرت قلقها عليه بشكل ضوضائي، إلاّ ان سو لم تلحظ في ميريك اهتماماً زائداً بصديقته لكنه، على أي حال، ليس من النوع الذي يفضح عواطفه بسهولة، ولعله كان يقضي أوقاتاً طويلة مع كارلوت بدون ان تدري. وبشكل ما، شعرت سو بأنه ليس ناسكاً برغم مظهره الخارجي الغامض. كان ثمة شيء في شكل فمه، أوحى اليها بأنه يستمتع ببعض المداعبات مع الجنس الآخر مع انها شخصياً لم تثر اهتمامه، ولا تريد ان تثيره. هكذا اكدت لنفسها.

من جهة أخرى، لم تستطع النكران بأنها تشعر برجولته كثيراً، برغم انه يبدو جاهلا لوجودها بصورة عامة. فخلال النهار كان نادراً ما يأتي لتناول الطعام، وفي المساء يخرج للعشاء في معظم الأحيان. لكن في كل مرة رأته فيها، كان ثمة شيء فيه يحرك فيها التجاوب نفسه الذي احسته بجلاء في ادنبره. ربما كان السبب تلك التنورة المضحكة التي كان يلبسها، اقنعت نفسها بالتواء. في تلك التنورة، يبدو كرجل جبلي بري رأت صوره في كتب

والدها. انه سبب كاف لأن يجعل قلب أية فتاة يخفق قليلا، وليس هناك بواعث أخرى للتخيل بأنها منجذبة اليه بمتانة غير قابلة للانقطاع.

لكن قلبها ازعجها بتصرفه غير المتوقع حين عاد في احدى الأمسيات باكراً. كان البيت هادئاً، فالسيدة لينوكس غائبة، وأبوها في غرفته، يكتب مبتهجاً على دراسة مؤلف عسكري اهدته اياه كارلوت. انها تأتي له دائماً بأشياء مختلفة وليس دائماً تكون هداياها مناسبة. لم تبد سو أي اعتراض علني على ذلك لأن جون كان يرحب بالفتاة ويبدي سروراً كبيراً بهداياها. وفي الواقع، كانت سو تفكر احياناً بأنها ربما اخطأت الحكم على كارلوت، لولا النظرات المقصودة التي كانت تحدجها بها في مناسبات خاصة، اضافة الى شك سو بأن زيارات الفتاة المتكررة كانت ايضا من اجل ميريك فيندلي، لكن كان من القسوة ان تصارحها بهذا.

في تلك الأمسية انتاب سو قلق غريب ضيق عليها انفاسها. وبعد ان تأكدت من وجود الجرس في متناول جون، اغلقت عليه الباب بلطف، وراحت تتمشى هنا وهناك في غرفة الجلوس. كانت واقفة أمام لوحة جدتها تتأملها عندما دخل ميريك.

لم يفاجئها لكونها سمعت شخصاً يتحرك في الردهة، ومع ذلك اجفلت حين استدارت ورأت انه هو، فعنفت حاستها السادسة بصمت لكونها لم تنذرها. أدركت في تلك اللحظة انها لن تستطيع الهرب، وتمنت لو انه لم يضبطها وهي تحدق الى لوحة عائلية.

«لقد جئت باكراً».

نطقت أول خاطرة لاحت لها وهي تحس ارتباكاً مفاجئاً يجفف شفتيها. رطبتها بتحفظ برأس لسانها، وازدادت ارتباكاً حين ركز عينيه السوداوين على فمها. استمر صمته فأضافت قائلة:

«هل تناولت عشاءك؟».

«تناولت عشائي. شكراً».

وجهه الصلب كان مغلق التعابير مبهماً، إلاّ ان شيئاً في قولها الأبله، او في شكلها، أثار فيه التسلية، وراحت عيناه تحتويانها بتمهل، غير عابئتين بأنها تعرضانها لتفحص مربك.

الصمت لم يزعجه البتة واستمرت عيناه تخترقان وتستكشفان تفاصيلها.

قوامها، تقاسيم وجهها الدقيقة الواضحة، شعرها الناعم كشعر طفل، انما الكث والمتموج نزولاً حتى كتفيها، عينيها الجميلتين بلونها الرمادي الغائم والمتناقض بنعومة مع بشرتها المتوردة والبيضاء كما زهرة الغاردينيا. بدا منكباً على فحص دقيق، فتقلص جسم سو حين أحست بومضة لهب تخترقه.

ولما أدار بصره عنها فجأة ونقله الى اللوحة، وعت الحقيقة. ولما تكلم، أكدت عبارته صدق استنتاجها وأخمدت الضوضاء في قلبها. قال في تمهل:

«ليس في امكان أحد ان ينكر صلتك الدموية بعائلة فريزر، ولكني اتساءل، كم من خصائص امك وطباعها يختبىء تحت قشرتك الخارجية؟».

قست عيناه من جديد، وصوته كان قاطعاً كالسكين! يا له من انعطاف مهين!

لم يكن يعرف امها بتاتاً، فلماذا يستنكرها الى هذا الحد؟ ما الذي يجعله يجلس قاضياً، ويحكم عليها بهذه الطريقة المتعالية؟ الوفاء يموت بصعوبة، وبأصعب مما تموت المحبة، لو ان سو توقفت قليلا لتفكر في هذا، لكنها هوت برعونة الى الشرك. وأجابت بشهقة غضب:

«ربما أنت لا تتقصد هذه الاهانة!».

«من كان مطلعاً على الظروف لا يسعه إلّا ان يتقصد ذلك. فعندما تحرم زوجة زوجها من حقه الشرعي . . . لا يمكنها ان تتوقع حكماً رحيماً من الناس».

«لكنها كانت طرفاً واحداً في القضية، ولو ان والدي اهتم كفاية ليحتفظ بنوع ما في الاتصال، فلربما . . .».

«لا تدعي الأمر يؤرقك. عزّي نفسك بأنك كنت أصغر سناً من أن تعي اي شيء عنه. ان قلة من البشر تنعم بهكذا مناعة ضد أخطاء الآخرين».

عذبها الجفاف المتناهي في نبراته. كان شيطاناً هازئاً ولا يأبه لكلماته الجارحة وهو يوجع ذهنها وجسمها معاً. ارتخت مفاصلها تماماً وكأن خدر الاسابيع الأخيرة قد أفقدها حسها، الآن أفاقت مشاعرها انما بخواء غريب، وكأنها بمجموعها تتوق في اللاوعي الى تجربة جديدة بعيدة عن متناولها.

شخصت اليه بخوف يائس وهي لا تدري مدى قدرتها على مواجهة ردود فعلها المتضاربة، وتدري فقط انها تحتاج وقتاً مهما كان قصيراً، ولأنها تعلم بأن ميريك مرتبط بشكل ما بهذه المشاعر فقد بالغت في ردود فعلها كطفل مضعضع. تغاضت عن نصيحته بعناد، وقالت:

«تتكلم وكأن الطلاق والفراق مرفوضان في هذا العصر. اني لأتساءل، ماذا كنت تفعل لو ان زوجتك هجرتك هكذا؟».

«لو كنت متزوجاً لجعلت زوجتي لا ترغب في تركي أساساً. لكننا لسنا في معرض الحديث عني. لقد أخطأت فهم قصدي الأول يا عزيزتي سو، فأنا ما أردت سوى نصحك بعدم ترك غلينرودن في حال خطر لك ذلك. ثم شككت فقط بأنك قد ورثت عن امك ميلها الى الهرب في اللحظة الغلط، وهذا شيء لا فائدة منه».

هل تراه يهددها؟ ارتفعت أصابعها البضة الى عنقها لتغطي النبض العصبي في أسفله وسألت:

«أتقصد علاقة رحيلي بوالدي؟».

«أجل، فصدمة أخرى لن تساعده».

«كالصدمة التي أحدثتها . . . مجيئي؟».

اخافتها قسوته فابتعدت عنه واستقرت عيناها للحظة عمياء على وجه جدتها وهي ترفض الاقرار بمنطقية كلامه. الا انه قال لها:

«الأمر رهن ارادتك، انما لا تعذبي نفسك بحق السماء يا فتاة! هذا ليس وقت الكلمات الرقيقة اذا كانت الشيء الذي تريدين».

وللحظة، انفرجت شفتاها بصمت وتراخت عليه مكدودة من حمى الصراع في داخلها. ثم، وبجهد مجنون، سلخت نفسها عنه واستدارت تواجهه قائلة:

«أنا لا أتوقع أي حنان منك يا سيد فيندلي، ولماذا أتوقع؟ قد تكون شريك والدي لكنك لست حتماً شريكي. أرجوك ان تتذكر ذلك!».

وخرجت من الغرفة غاضبة مهرولة وصدى صوتها المختنق يلاحقها. لو انها استعانت ببعض الكرامة لكانت انتصرت عليه بعبارتها الأخيرة. لكن الفرصة فاتتها.

لازمها ذلك الشعور الغريب بالقلق طوال اليومين التاليين والى حد لفت انتباه السيدة لينوكس التي نصحتها بقولها:

«انك بحاجة الى التغيير يا عزيزتي. سأحضر لك بعض الساندويتش تحملينه معك. انطلقي بسيارتك وتنزهي ثم تناولي غداءك في مكان ظليل. اذا التزمت الطريق العام فلن تضيعي. هواء الخليج سينعشك ويعيد اللون الى خديك».

وعدت ايضا بأن تأخذ بالها من جون، ومع ذلك وافقت سو على الذهاب بتردد. فبرغم ان جون غادر فراشه الا ان الطبيب حذرها من مغبة تعريضه للتعب ونصح فقط برياضة التمشي داخل البيت. اليوم بدا متعباً وفضل التزام الفراش. هكذا يرتاح بالها اكثر، قالت لنفسها وهي تخرج بسيارتها من المرآب.

وما ان اصبحت على الطريق حتى أحست معنوياتها ترتفع، وسرت لكونها عملت بنصيحة السيدة لينوكس. كان هناك صمت خريفي يخيم على الحقول البرية، تخرقه بين حين وآخر طلقات صيد بعيدة. جون أخبرها في الصباح ان ميريك يصطحب فرق صيد مرتين او ثلاثاً في الاسبوع في هذا الفصل، ولم يزل استغرابها حتى شرح لها التفاصيل وهو يبتسم بأسى:

«هذا العمل كان من اختصاصي وتوقفت عنه منذ بضع سنوات، لكن اتفاقنا مع فندق القرية ما يزال سارياً. اننا نزود الطرائد وهو يزود الصيادين. انه عمل شاق نوعاً ولا أدري الأم سيستطيع ميريك الاستمرار فيه لكنه يساعدنا مادياً».

«منذ متى بدأ ميريك العمل معك؟».

لم تقصد ان تسأل، لكن ميريك لم يكن ليبارح أفكارها منذ لقائها في غرفة الجلوس.

رمقها جون وقتئذ بسرعة وكأنه استغرب تعبيرها، ثم اكتفى بالقول:

«منذ عشرة أعوام تقريباً. جاء هنا في منتصف عشريناته، وساعدته على تعلم امور كثيرة، وعساك تفهمين ما أقصد. ابوه توفي في جنوب افريقيا ولذا لم يجد الى جانبه احداً سواي».

لم تفهم قصده بالضبط لكنها كانت تتعلم بسرعة كيف يتقوقع ابوها احياناً داخل صدفة معينة حين تطلب منه مزيداً من الايضاح. لذا حولت

الموضوع وركزت على جنوب افريقيا، وكلها فضول غريب لمعرفة تلك الحقبة من حياة ميريك. لكن السيدة لينوكس دخلت، فنهضت تستعد للخروج على ان تتابع الحديث في اليوم التالي.

٤ - حبيبة قلبه!

قررت سو طرد هواجسها وركزت على القيادة وايجاد الخليج. السيدة لينوكس مدربة على التمريض وأبوها سيكون في أمان. وبعد دقائق وجدت الطريق بسهولة، فمن خلف مقطع النهر، انعطفت يميناً بدل الوجهة اليسارية المؤدية الى القرية. سيارتها الصغيرة كانت تسير على أفضل ما يرام. الطقس كان جيلاً، وعلى الطريق أغنام سوداء تتراكض أمام السيارة. صخور ضخمة كانت تمر بها، أماكن مثالية لنزهة في الصحو، قالت في نفسها وهي تمضي قدماً، ولا تفكر بالتوقف حتى تصل الخليج.

مرت بعدة سيارات على الطريق، ولم تستغرب ذلك كثيراً، فالمنطقة تعيش حالياً موسمها السياحي. تذكرت يوم وصولها حشد الزبائن في حانوت القرية. ومع ذلك، تبدو هذه الطرقات مقفرة بالمقارنة مع طرقات مشابهة في الجنوب. الجنوب... وتساءلت فجأة عما اذا كانت ستعود الى لندن يوماً... هل ترغب فعلاً في ذلك؟ قد لا يكون سهلا ان تبقى هنا. من الغباء ان تأمل بهذه السهولة. فعليها ان تجد اصدقاء جدداً، وأن تجد عملا في نهاية الأمر، لا يمكنها ان تقضي بقية عمرها متجولة في ربوع غلينرودن. وهنا سقط قلبها بين ضلوعها. اذا كان ميريك سيتزوج كارلوت كريغ فقد لا تتمكن مطلقاً من البقاء!

ثم، خلف المنعطف التالي، وبدون انذار، أطلت على تجمع العربات المقطورة.

فاجأها المشهد، فانتحت جانباً من الطريق وأوقفت سيارتها وراحت تحدق. كان واحداً من أحلى المتنزهات التي رأتها في حياتها، لكن استياء

عميقاً ضايقها مما بدا لها تهجماً على خلوتها. فحولها من كل الجهات، كانت الجبال والبراري في عزها، تصطلي بشمس خريفية، وهنا كان الشيء الوحيد الذي أملت ان تهرب منه جموع الناس!

ارغام داخلي ما، وليس ميلا، جعلها تقرر زيارة المكان. تركت سيارتها، وسارت نزولا على الدرب الواسع بين العربات، فرأت لافتة كتب عليها بوضوح «منتزه غلينرودن للعربات. لا أماكن خالية». لم تعلق على ذلك أهمية خاصة، لكن حين رأت كارلوت تبرز من خلف احدى العربات، بدأ الشك يساورها.

توقفت كارلوت، وهي لا تقل دهشة عن سو وقالت في حذر:

«ما الذي تفعلينه هنا؟».

«ألقي نظرة على المكان».

لم يكن الجواب مطابقاً لما كانت تريد قوله، لكن لا يجب على كارلوت ان تطرح أسئلة سخيفة. ثم ما الذي يدعوها الى التصرف بهذا الشكل وكأنها تملك المكان؟ انها حتماً لا تعيش هنا؟ ووعت فجأة انها تجهل تماماً أين تسكن كارلوت. تصورت انها تسكن القرية.

«ساعرفك الى المكان، اذا شئت؟».

فسألت سو بمكر لتشبع فضولها:

«تعرفينني الى المكان؟ ولماذا تفعلين ذلك؟».

فاستشفت كارلوت مغزاها بسهولة وقالت:

«اذا كنت تقصدين ان تسألي عما اذا كنت أعيش هنا أو أملك المكان فالجواب لا. انه جزء من غلينرودن».

«اتقصدين أملاك غلينرودن؟».

تضرجت سو حين ألقت السؤال. انها تكره الالحاح في طلب المعلومات، ولم يطلعها احد على هذا الأمر.

زادتها كارلوت حرجاً حين أومأت برأسها فاهتز شعرها الأسود الأملس وقالت بنظرة اعتلاء:

«يبدو ان هناك أشياء كثيرة تجهلينها، وأتساءل عن السبب».

الكلمات بريئة لكن النبرة كانت هازئة. وتابعت تشرح الصورة:

«هناك امرأة تدير المكتب عادة لكنها الآن غائبة، ولذا طلب ميريك

مساعدتي ريثما تعود».

تجمدت سو، ثم هوى قلبها مرة أخرى على رغم منها. كلاهما يعمل هنا الى جانب الآخر! لكن ما الذي يحوج غلينرودن الى مجمع عربات؟ انها شاسعة وغنية بما فيه الكفاية ولا موجب لأن تلجأ الى هذا النوع من التجارة. أجابت في جمود:

«والدي لم يذكر وجود هذا المنتزه، على كل، انه مريض، وأنا لا أرى السيد فيندلي كثيراً».

وحالما انهت سو كلامها ندمت على الشق الأخير منه، في حين تمددت ابتسامة مختلفة على فم كارلوت، وقالت:

«ميريك لن يرغب في بحث هذه الشؤون معك وبخاصة انك غريبة. كذلك يعتقد بأنك لن تطيلي اقامتك، بعد ان يتحسن جون، ولذا سيضيع وقته ليس الا».

احجمت سو بصعوبة عن اعطاء جواب قارص. فمن الجائز ان كارلوت تروي الحقيقة وهي لا تستبعد صدور آراء كهذه من ميريك. لكن الفتاة كانت تضع لها طعماً وهي يجب ان ترفض السقوط في شرك الاستعداء كي تتمكن من معرفة ما يجري. عضت شفتها بقوة ثم أفرجت عنها، وابتسمت وهي تقول:

«يسرني ان أجول في المكان، اذا سمحت، طالما اني هنا».

أمضت الساعة التالية مع كارلوت تتمشى في أرجاء المنتزه، وسرعان ما تأكدت من جودته ونجاحه. كان يحوي كل الوسائل العصرية المريحة بما فيها دكان يبيع الضروريات الغذائية كاللحم والحليب والبيض. وقالت كارلوت تشرح المزيد:

«المواد الأخرى يبتاعونها من حانوت القرية، والمنتزه ساعد القرية كثيراً من الناحية المادية».

وأضافت تقول ان كل العربات مؤجرة، فالناس يحبون هذا النمط في قضاء الاجازات وقد انتشرت شهرة المنتزه في العامين الأخيرين ونتيجة لذلك صار الموسم السياحي يمتد حتى منتصف الخريف، بل أصبح أكثر فصول السنة شعبية ورواجاً.

بعد انتهاء الجولة دعتها كارلوت بترحاب الى شرب القهوة في المكتب

فقبلت دعوتها شاكرة كيلا تبدو عديمة التهذيب. كارلوت ستنجح حتماً كدليلة في وكالة سياحية، فهي تبدو بارعة في هذا النوع من العمل، واذا كانت تحاول ان تثبت منفعتها لميريك، فلا شك انها نجحت تماماً!

كان المكتب صغيراً وجيد التجهيز. أراحت كارلوت قوامها الأنيق على المقعد الوثير خلف الطاولة، وأشارت الى سو بأن تجلس مقابلها وقالت:

«بعد ساعة ستأتي امرأة أخرى لتحل مكاني. العمل يتكثف في الصباح الباكر وبعد الظهر حين يصل أناس جدد، وميريك لا يدعني أتعب نفسي معهم».

هذا قد يعني أشياء كثيرة، فكرت سو بتهكم عندما تابعت رحلتها بعد انتهاء الزيارة بوقت قصير. فاما أن كارلوت ليست قديرة كما تبدو واما ان ميريك فيندلي بالغ القلق على حبيبة قلبه. وصلت بعيد الظهر الى الخليج حيث تناولت الغداء ثم تنزهت حوله، وقررت ان تكتفي بهذا القدر من التجوال وقد فقدت الحماس لشعور لم تدر له سبباً.

لما وصلت البيت، استغربت السيدة لينوكس عودتها المبكرة فطمأنتها بقولها:

«قضيت يوماً لطيفاً. دعيني أقدم الشاي عنك لتنصرفي باكراً، فأنت ايضا تحتاجين الى بعض الفرص».

كانت الصينية مهيأة فحملتها واتجهت الى غرفة جون وهي تقاوم حشرية في أن تسأل السيدة لينوكس عن منتزه العربات، انما تخشى ان تتلقى جواباً مماثلا لجواب كارلوت. من الأفضل ان تسأل ميريك بالذات حينما تراه.

فتحت باب جون، وأجفلت لما رأت ميريك معه. عبرت الغرفة فنهض متناولا الصينية منها، ووضعها على الطاولة الصغيرة قبالة الموقد. استدار يتفرس في محياها الذي تضرج فجأة، وقال:

«أظنك كنت خارج البيت؟».

يا له من حشري! يريد ايضا، ان يعرف أين كانت. هذا ما تقوله نبرة صوته او هكذا تفسرها هي. حسناً، لن تشبع فضوله فوراً... ابتسمت لوالدها قبل ان تجيب ميريك بسؤال من عندها:

«أراك تعود باكراً، أين تركت صياديك؟».

«في رعاية مساعدي القدير على ما أرجو. كانوا على وشك الانتهاء

عندما غادرت، وأخالهم عادوا الآن الى الفندق».

كان صوته مرحاً ومؤنباً، وكأنه حزر عزمها على مماطلته فأراد مجاراتها الى حد معين.

«يبدو انك قادر على التهاون في واجباتك احياناً يا سيد فيندلي».

بادلته النظر في عدائية لم تستطع ضبطها، فتصادمت نظراتهما، عيناه تبرقان في خطر وعيناها تلمعان كالجليد.

فأجاب بقسوة وتعمد:

«لا أعرف أين ذهبت، لكن الهواء هناك لم يناسبك حتماً يا آنسة فريزر. لكني أكيد من أن أباك يفضل الشاي على نزقك».

هذا الرجل يحتاج الى من يضعه في مكانه. هذه المهمة منوطة بها ما دام أبوها يبدو وكأنه في عالم ثان... سارت الى الطاولة وشرعت تسكب الشاي، وأهدابها تبدو كمراوح سود على خديها.

التزم ميريك الصمت فيما كانت تقدم الشاي لأبيها، لكن صمته كان أكثر تهديداً من الكلام. ولما ناولته فنجانه، ألقت عليه نظرة خاطفة مترقبة وأشاحت عنه بسرعة. كان يرتدي تنورته المعهودة مع سترة من التويد (قماش صوفي خشن) تحتها قميص بني وربطة عنق سادة، ومن وسطه، تتدلى سلسلة معدنية تحمل كيساً من الجلد البني. هذا الكيس- بحسب معلوماتها- يستعمل كبديل للجيوب غير الموجودة في التنورة. جواربه كانت من الصوف البني، لمحت حمالتيها، بالاضافة الى حذاء من الجلد المدبوغ، وفي أعلى جوربه الأيمن لاحظت غمد سكين ذات مقبض بشكل البوق، فيما كانت ركبتاه عاريتين مشردتين. بدا قاسياً ووسيماً.

أبرقت عيناها العاصفتان فوق فمه المتهكم في خبث، وقضمت بعصبية، لقمة من ساندويش الخيار، ثم صرّحت بحدة:

«في أثناء خروجي، اكتشفت بالصدفة المحضة، وجود مجمع عربات عند الخليج، وتطوعت كارلوت بدماثة لاصطحابي في جولة فيه».

اخيراً بقت البحصة، واحاطتها، على رغم منها، بعتاب غاضب، وقد أحست حين نطقت إسم كارلوت بغيرة غير مألوفة تنبثق فيها. وفوراً، استشعرت نظرة ميريك السريعة ونظرة أبيها المضطربة قليلاً.

وتكلم والدها، وليس ميريك، فقال بشيء من الارتجاج:

«كنت مريضاً يا سوزان، وهذه الأشياء تسهى عن بالي».

وأضاف ميريك بانفعال حاد:

«لماذا تعطين الأمر كل هذه الأهمية؟ أبوك، بغض النظر عن مرضه، لا يأبه كثيراً لهكذا مشروع. أنا صاحب الفكرة من الأساس، ولذا من الطبيعي جداً ان يسهى جون عن ذكر الموضوع لك».

«هناك أناس آخرون في البيت اضافة الى والدي!».

«الآخرون لديهم أشغال يا عزيزتي».

«أتقصد اني غير مشغولة؟».

أظلم وجهه، وخالت للحظة انه سيسير اليها حيث هي ليهزها. بدا كرجل غريب، متجهم وهائل. أجاب في برود:

«أقصد العكس، لكن مشاغلنا لا تسير في الاتجاه نفسه».

«لا أعتقد انك تعمل كل مساء. في وسعك ان تجد بعض الوقت لتطلعني على مجمل الأوضاع».

«لو اني أتأكد من ترحيبك برفقتي، لكنت ألبي الطلب راضياً مسروراً».

كان واضحاً انه يقصد شيئاً بعيداً تماماً عما يدور في ذهنها. كانت عيناه الملتصقتان بعينيها الرماديتين، مليئتين بتهديد واضح حري باهتمامها، وكأنما تقولان: أبقي حيث انت لبينما تقررين ملاقاتي في منتصف الطريق. ضعضعها كلياً تفسيرها المجنون لنظرته، فهتفت في رعونة:

«ليس ثمة سبب يدعو الى الافتراض بأن الآنسة كريغ تحتكر كل أوقات فراغك!».

«في وسعك ان تخبر ابنتك يا جون كيف أقضي معظم امسياتي، وحيث أتعشى في الفندق في اطار المصالح العملية».

تجاهل ذكرها لكارلوت والتجاؤه الى معونة جون قد يكون مرتبطاً بواقع العمل الا انه بدا عرضياً محضاً.

انتشل جون نفسه من انغماسه في سماع الراديو وشرب الشاي وكأنه غافل تقريباً عن مصارعتهما الكلامية، وتمتم قائلاً:

«كان من واجبي ان أخبرك ذلك ايضا يا سوزان. أحاديث كثيرة يتبادلها الناس في سهرة واحدة. كانت السهرة امتع الأوقات بالنسبة الي، في الأيام الخوالي، حين كان الضيوف...».

التهب صدرها غضباً وقضمت شفتها. هذا القضم بدأ يصبح عادة لديها... أبوها وميريك، كانا معاً كجدار حجري، وكلاهما كان قاهراً بطرقه المختلفة. لا يسعها ان تأمل أبداً باختراق قواهما الموحدة. أحست خيبة عاجزة فقالت في سخرية:

«يدهشني كل هذا الذي يجري من أجل المصالح المادية».

اجابها الصمت من كلا الجانبين. جون، رافضاً ربما متابعة أي اهتمام مطوّل بأي شيء يزعجه، فالتجأ الى الراديو يرفع صوته، تاركاً الزمام لميريك ومتجاهلا وجه سو الغاضب. هذا ما استنتجته قبل ان ترتطم عيناها مجدداً بعيني ميريك الغامقتين. كان ينهي شرب الشاي بجرعة كبيرة، ونظرته ما تزال تتأرجح بين الغضب والتسلية.

أعاد فنجانه الى الصينية ونهض واقفاً، فشعرت سو بقوته تهوي عليها كما الصفعة، طاردة من جسمها كل ردود الفعل العصبية. ومع انها ظلت لبضع ثوان تتحدى نظرته القاتمة لكنها سرعان ما ندمت على كلماتها المتسرعة. التقطت فنجانها لتعزز موقفها ضد هجمات لاحقة. ورشفت الشاي في شرود.

وعندما تكلم ميريك أخيراً، انخدعت بلطف صوته وهو يقول:

«لس من عادتي ان أبرر تصرفاتي للناس يا آنسة سو، ولن أغير الآن هذه العادة. واذا كنت تفكرين في اجراء تحريات خاصة، فسارعي الى ذلك على مسؤوليتك الخاصة».

«لم أكن...» اختنق صوتها فلم تكمل.

فأكمل هو عنها وصوته ما يزال يلفها بنعومة الحرير:

«لم تكوني تطعنين في سمعتي، أليس كذلك؟ لقد استعملت تعبيراً عتيقاً، انما ليس هناك تعبير عصري أنسب منه».

لن تقدر ان تنتصر على هذا الرجل ابداً ولو عاشت لمئة عام. صوته المتهكم البطيء يغيظها بتبدلاته أكثر مما تغيظها كلماته الفعلية، لكن ذهنه حاد كحافة شفرة وهذا لا يعجبها احياناً... مررت أصابعها المضطربة على جبينها وقالت:

«يجب ان تقر بحقي في الاطلاع على مزيد من الحقائق! أبي مريض ولا الومه ان هو قصّر في ذلك».

ورمقت أباها متوسلة اذ كان توترها الداخلي أكثر مما تستطيع احتماله.

كان جون قد فرغ من شرب الشاي وتناول سيكاراً راح يقص طرفه بتمهل ويشذبه ويشعله. ثم فاجأها بقوله من خلال الدخان الأزرق:

«ميريك جاء اليوم باكراً ليعرفك الى المكان. لقد مر بعض الوقت على مجيئك هنا، فارتأى ان يصطحبك في نزهة ريفية».

فقالت:

«ليس هذا ما قصدت بالضبط».

تململت قلقة وقد تفاجأت بما قاله أبوها، لكن ذلك لم يلطف غضبها. أضافت وهي تستدير ناظرة الى ميريك:

«أنا لست مجرد سائحة عابرة لأعامل كما السياح، فاكتشافي عرضاً لشأن يخصني، كفيل باحراج موقفي. مثلا، اكتشافي لمجمع العربات ولوجود كارلوت فيه، وحيث اضطررت للاعتراف بأني اجهل اي شيء عنه. كان ذلك مهيناً بالنسبة الي!».

رمقها ميريك من علوه الشامخ وفي عمق عينيه يأس مصطنع وقال ساخراً:

«ان مطلق واد اسكتلندي، وبخاصة في بيرتشاير، يغص بالأشياء المغرية؛ غابات، تلال، قفار، مستنقعات، عالم غني بالحياة البرية. ومن بين كل ذلك، اخترت العثور على مجمع للعربات!».

«أنت مقتنع على ما يبدو بأن حدسي ساقني اليه؟ بطريقة مغنطيسية ما؟».

«أو بدافع فضول فطري لا يعرفه سكان المدن بصورة عامة. وبالنسبة الى كارلوت، فهي لا تترفع عن مساعدتي في حال طلبت منها ذلك، ولديها كل المعلومات السياحية المطلوبة، بالاضافة الى كونها فتاة ساحرة».

وخزتها الصدمة بحدة فشخصت الى يديها. انه يعتبر كارلوت فتاة ساحرة! صفعتها المعرفة بألم لا منطقي. فتنفست بعمق وقالت:

«اذا بقيت هنا، فقد أتعلم أنا ايضا القيام بعمل مفيد».

«ليس في المنتزه اذا كان هو المقصود».

«لم أقصده بالذات...».

وانقطع صوتها اذ راح ذهنها المشوش يقاوم التوضيح. لو انه يبتسم قليلا

لشرحت له ربما بأنها تكره ان تعامل كزائرة غريبة. هزت كتفيها بتمرد، وعيناها تتوجهان في بطء الى ركبتيه العاريتين. كان جلدهما خشناً متيناً ككل شيء فيه، ومعتاداً على صفع الرياح.

سقطت جمرة في الموقد فانتبهت الى صمته المنتظر جوابها. تناولت صينية الشاي بسرعة وهبت واقفة. وبدل ان تحاول اكمال عبارتها المقطوعة بدأت واحدة جديدة قائلة:

«ربما أنا مدينة لك باعتذار يا سيد فيندلي. اذا كنت عازماً بالفعل على اصطحابي في جولة تعريفية فلك شكري وامتناني، لكن الوقت داهمني، فأنا اطهو طعام العشاء عادة ويجب الاسراع به. سأكون على أتم الاستعداد لمرافقتك في يوم آخر».

لكن اليوم الآخر لم يحن بسرعة، وبدا ميريك فيندلي وكأنه نسي كل شيء عنه، فيما ترددت سو في تذكيره به برغم شوقها الى زيارة الأملاك ومعرفة حدودها بدقة. ربما ميريك، بصفته مديراً للأملاك، كان يتردد في المبادرة، ولكن عجزها هي عن المبادرة لسبب غامض ما، أوقعها في ورطة.

انشغلت في مساعدة السيدة لينوكس في أعمال البيت لكن هذا الانشغال لم يكن كافياً وبرغم ان جون كان ينتكس احياناً فيحتاج اليهما معاً. وحتى في تلك الظروف كانت السيدة لينوكس تضطلع بمسؤولية التمريض، ولذا قررت سو أن تبحث عن عمل تعليمي حالما تتحسن صحة جون. لا بد ان مؤسسة ما في الجوار تحتاج معلمة للصغار. ومن الأفضل ان تستعلم عن ذلك، فمنطقة بيرتشاير، تبعاً لخريطتها، مليئة بالقرى الصغيرة.

بدأت الاستعلام من السيدة لينوكس التي اجابتها:

«لا اعرف شيئاً عن القرى الأخرى يا عزيزتي، لكن المدرسة في قريتنا لديها معلمتان توظفتا منذ سنوات طويلة، وكلتاهما لم تصل بعد سن التقاعد».

«قد اضطر للبحث في مكان أبعد».

«ربما».

ترددت المرأة قليلا حين لحظت التعبير الجدي على وجه سو وأضافت:

«ليتك تنتظرين حين يتعافى والدك تماماً، فهو يظهر قلقاً عندما تغيبين عن بصره، وقد ينزعج كثيراً اذا عملت خارج البيت».

«معك حق».

اجابتها سو بتكلف. كيف يمكنها افهام السيدة لينوكس بأنها لا تمانع في البقاء الى الأبد لو تشعر فقط بأنها كانت تشكل بالفعل جزءاً من غلينرودن؟ أبوها يتعلق بها بدافع ابتهاجه الشديد بعثوره على ابنة لم يحلم بوجودها، وكان في شوق لأن يعرفها الى اصدقائه حين تتحسن صحته. لكنها تريد ان تكون أكثر من قطعة للعرض. تريد الانتماء! ترى، هل سيفتقدها احد هنا، اذا رحلت؟

فقالت وأفكارها تتحول الى مجرى آخر:

«اذا عملت، فقد يسر السيد فيندلي ان يرتاح مني لبعض الوقت لانه بدأ يتضايق ولا شك من وجودي المستمر حوله».

كان اسلوباً ماكراً للاطمئنان على قضية معينة لكنها شعرت فجأة بأهمية الاطمئنان.

اتسعت عينا السيدة لينوكس بدهشة حقيقية وأجابت:

«ثقي انك مخطئة يا عزيزتي، فالسيد فيندلي قليلا ما يلاحظ وجودك».

فالتمعت عيناها بلهو ساخر. حسناً، انه ليس الجواب الذي تأملت ان تسمعه لكنها تستحقه حتماً. فهي التي جلبت الدب الى كرمها! وبرغم ذلك ثابرت عليه في اتجاه آخر، حين أضافت:

«كارلوت لم تزرنا مؤخراً واعتقد انها ما تزال في مخيم العربات. سألت والدي عن مكان سكنها فقال انه بالقرب من بيرث. انها لمسافة بعيدة تقطعها ذهاباً واياباً الى مكان العمل».

أومأت السيدة لينوكس بشرود وهي تباشر تحضير الغداء، وأجابت:

«أبوها متوفي. كان ابن عم والدك اللزم، وهي تعيش مع امرأة مسنة من قريبات امها. اعتقد انها كانت قريبة أبيك الوحيدة حتى جئت أنت».

«يبدو ان السيد فيندلي يودها».

«أعتقد انه يفعل فهي تأتي كثيراً الى غلينرودن، ودائماً كانا على انسجام».

السيدة لينوكس تتعمد الكتمان وهي تفعل ذلك عندما تريد. هذا ما ارتابت به سو عندما خرجت المرأة تلبي نداء الجرس في غرفة جون. انها لن تستطيع استخلاص شيء منها! حياتها في غلينرودن كما العيش في

فراغ. . . الماضي والمستقبل لن يتوضحا تماماً قبل ان يستعيد جون عافيته بكاملها، وفي خلال ذلك ستظل نزيلة سجن صنعته بنفسها. واذا كانت تشعر بأن الجزء الأكبر من قلقها الغريب يتأصل من مصدر آخر، فانها ترفض الاقرار بهذا الشعور، فميريك فيندلي ليس له أي مكان في خططها المستقبلية على الاطلاق!

في احدى الأمسيات، قررت بعد العشاء النزول الى الكوخ. السيدة لينوكس كانت ستنام عندهم فوجدت في ذلك فرصة مثالية. كانت تقضي وقتها مؤخراً في مساعدة ابيها على كتابة أبحاثه، وفي اليومين الأخيرين، اكبّا على كتابة الفصل المتعلق بثورة اليعقوبيين (حزب سياسي بريطاني). كان جون قد عالج معركة كالودين (موقع اسكتلندي) بثلاثة أساليب مختلفة على أقل تقدير، وانتقل الآن الى جيش هانوفر في ابان الاحتلال (هانوفر كان مجلساً حاكماً في بريطانيا). شكر سو على مساعدتها القيمة في جمع الملاحظات المطلوبة، وقال انه عندما يتحسن سيجد فيها كل ما يحتاجه لاكمال أطروحته. مسودته الأولى كانت ما تزال في الكوخ، فطلب الى سو ان تأتيه بها، اضافة الى مجلدين يحويان معلومات اضافية يود الاستعانة بها.

كان المساء دافئاً فلم تحتج الى معطفها، وأخذت معها سلة لتضع فيها الكتب، ثم خرجت في هدوء من الباب الجانبي.

كان من السهل الوصول الى الكوخ وذلك باتباع درب عشبي يمر عبر الأشجار. أسرعت الخطى لأن الغروب كان بدأ يخيم برغم الشمس الغاربة التي كانت تعزز جمال التل والوادي، والتي جعلتها تخفف سيرها بالرغم منها. أعجبتها رائحة الأحراج الخريفية، عبير العشب المتيبس، النضوج المنعكس في احمرار الاجاص وأرجوانية التوت وذهب البندق.

فتحت القفل بسرعة ودخلت الكوخ المعتم وهي تؤنب نفسها على تلكؤها لكنها شعرت بالارتياح حين وجدت ان الكهرباء لم تقطع في خلال غياب جون. كبست زر الردهة فغمر النور المكان لكنها عادت واطفأتها، فضوء الغروب يكفيها، وهي وعدت نفسها بجولة هادئة، وخشيت، اذا أضاءت النور ان يراه احد فيأتي ليتحرى السبب.

جالت في البيت حذرة ووجدت كل شيء كما وصفه ميريك فيندلي في الليلة الأولى. أصيبت بشيء من خيبة الأمل فعادت الى غرفة الجلوس

ووضعت السلة على حافة الطاولة. لقد سألت جون عدة مرات عن رأيه في العودة الى الكوخ للسكن فيه، لكنه في كل مرة كان يهز رأسه ويجيب:

«ظننتك مرتاحة هنا يا عزيزتي. أنا لم استعمل الكوخ الا للكتابة من حين اصابتي بمرض القلب، وميريك لا يريدني ان أعيش هناك بمفردي».

«لكنني الآن معك وسأبقى معك حيثما تكون» كانت تجادل بلا طائل. انما في أعماق نفسها، كانت بدأت تحب البيت الكبير، كما يسميه الجميع، لكن ميريك فيندلي كان يقلقها وأحست بغريزة ما، تنذرها بوجوب الانتقال قبل فوات الوقت.

بيد ان والدها تشبث بموقفه العنيد، وقال لها مرة:

«انك لا تعين ما سيسببه الانتقال من مشقات يا سوزان. فكري في كل التجديدات التي سيتوجب علينا اجراؤها والتي لن تستطيعي مواجهتها بمفردك. من الأفضل جداً ان نبقى هنا».

كانت تلك وجهة نظره، لكنها الآن، وبعد ان تحققت من وضع الكوخ بنفسها، أدركت انه على حق. فالغرف العليا، برغم بنائها السليم، كانت في منتهى الفوضى، وقد بدأ سقفها يتقبع وكذلك ورق الجدران، فضلا عن اكتظاظها بالأغراض القديمة وقطع الأثاث، وهيهات ان تنقل في أقل من أسبوع. الغرفة الأخرى في الطابق الأرضي كانت تستعمل كغرفة نوم، ولكنها مشوشة ايضا وفيها روائح عفن. وتساءلت سو عما حدا بوالدها لأن يأتي ويعيش هنا من الأساس.

حاولت مرتين ان تستوضحه السبب فكان يغمغم الرد وكأنه يجد صعوبة في الخوض معها في أي موضوع باستثناء الحديث عن كتابه. ايضا، كان وعدها بأن يوقف ارسال النفقة الى مصرف لندن، وبعد ذلك تحاشى ذكر الأمر، فاضطرت في النهاية لأن تكتب الى المحامي بنفسها شارحة له بعض التفاصيل، ووعدته بأن تظل على اتصال، مما ذكرها بوعدها لتيم بأن تكتب له. كانت بعثت له برسالة قصيرة بعيد وصولها كفيلة فقط بتطمينه، ولا بد انه ينتظر الآن رسالة اطول تتضمن مزيداً من التفاصيل والأخبار. انه يستأهل رسالة كهذه لأنه ما تصرف معها الا بمحبة واخلاص، وقررت ان تؤدي هذا الواجب فوراً.

سارت الى المكتب الرازح تحت الأوراق والكتب، وبحثت في عناية بين

الأكوام حتى وجدت ورقاً وقلماً، فحملتهما الى حيث الطاولة وجلست اليها تفكر في ما يجب ان تقول. التقطت القلم بتردد فأوعز اليها ضميرها بأن تباشر الكتابة بلا تردد، لكنها في الاسبوعين الأخيرين قلما فكرت في تيم او تذكرته، ولذا لم تعرف كيف تبدأ. وفي الأخير كتبت.

«عزيزي تيم، قد يدهشك ان تعلم بأن والدي صاحب أملاك واسعة. . .».

كلا! لم يعجبها ما كتبت، فتوقفت وراحت تقضم طرف القلم. عبارتها بدت متفاخرة. قطبت ومدت يدها لتنزع الصفحة حين جعلها صوت خارج الباب تقفز داخل جلدها. هناك شخص ما. أتراها السيدة لينوكس جاءت تستدعيها؟ هل حصل شيء؟ هبت واقفة وأركضها الذعر الى الباب لتجده ينفتح في وجهها ولترى ميريك فيندلي يقف على العتبة.

اطلقت شهقة نصفها ارتياح، وقالت:

«سمعت شيئاً فظننته شبحاً».

«لو كان شبحاً لما جعلك تشحبين الى هذا الحد».

قال في جفاف وهو يطبق الباب خلفه، ثم أمسك بذراعها وقادها الى أقرب مقعد. بعد ذلك انحنى على المدفأة وأشعلها قائلاً:

«الغرف المهجورة يعشش فيها البرد. قليل من الدفء وتشعرين حالاً بالتحسن».

وخطر لسو ان تقول بانها تفضل الاستدفاء بقلقه عليها لأنه اكثر حرارة من النار، لكنها طردت الفكرة وقالت تعترض بضعف:

«لا أشكو من شيء. كل ما في الأمر اني لم أتوقع رؤيتك».

فرمقها بطرف عينه وأجاب:

«انك لا تتوقعين رؤيتي ابداً، اليس كذلك يا سو؟ قد يرضي غروري كثيراً، اذا اعتقدت للحظة، باني كنت السبب في تصرفاتك المحمومة هذه!».

رفرفت أهدابها وهي تحاول الصمود أمام تحديقه الساخر، فيما زحف الاحمرار كوردة برية الى وجهها. انكمشت قليلاً وأسندت رأسها الى ظهر المقعد وقد شعرت بالعجز عن محاربة رجولته القاسية. حاولت التركيز على عبارته الأخيرة، ثم قالت:

«تصورت ان السيدة لينوكس جاءتني بنبأ سيء. أعتقد ان ذلك كان غباء مني».

«كان غباء كبيراً».

لم يتظاهر بانه أساء فهم كلامها، وفجأة بدت عيناه أكثر عطفاً وهو يتابع:

«في الواقع، لم أجدك هنا عرضاً. جون أعلمني بمكانك فقررت المجيء والعودة معك الى البيت. فعمّا قليل يحل الظلام وقد تضيعين في العتمة، بالاضافة الى شيء أردت استفسارك عنه».

كانت تعيره نصف سمعها وهي تحدق الى النار وتفكر في المشاعر المتضاربة والمضطرمة في داخلها. بالكاد احست به حين استدار وجلس في المقعد المقابل، ما الذي يريد الاستفسار عنه؟ لا شيء مهماً بالتأكيد. وفي لحظة ذعر عصبي، قالت فجأة:

«اني أساعد والدي في أبحاثه، جئت هنا لغرض يتعلق بها، لأجلب له كتباً. لعله أخبرك ذلك».

«ألا يشعرك هذا العمل بالملل؟».

«ولماذا يضجرني؟».

استوت جالسة فسقط شعرها كقوس أشقر على خدها المتورد. وأضافت قائلة:

«اعترف بأني لم أكن واثقة في البداية من ميلي اليه لكنه سرعان ما جذبني أكثر مع مرور الأيام».

«هل تستمتعين بتاريخ اسكتلندا بحد ذاته أم بالطريقة التي يحارب بها جون كل معركة وكأنه كان هناك شخصياً؟».

عاد البريق الى عينيه وكأنه يغيظها، فردت بخفة:

«ستراتيجيته تبدو جيدة، فلو انه حارب آنذاك لكان الامير تشارلز انتصر ومات ميتة كريمة. أما بخصوص اهتمامي، فاسكتلندا وطني، مع اني اكتشفت هذا مؤخراً».

«أنا ايضا لم يمض وقت طويل على وجودي هنا، لكنني عدت الى موطني».

«عدت؟ تقصد انك كنت هنا قبلا في اجازة؟».

«ليس تماماً. لا أعتقد ان جون وجد الوقت ليخبرك. رحلت مع أبوي حين كنت في السادسة. كان أبي مقامراً الى حد ما، وليس عسكرياً كوالدك».

«كان مقامراً؟».

«المقامرة متعددة الأنواع يا سو. أبي قامر بكل ما لديه، وانتفع مادياً، لكنه خسر حياته».

«ماذا كان يعمل؟».

«في استخراج الذهب».

ولم يزد حرفاً.

«آه... فهمت».

«لا، لم تفهمي. لكن لنقفل الموضوع. يكفي القول اني رجعت».

فأصرت سو على الاسترسال وقالت:

«أغلب الظن انك عشت طويلا في جنوب افريقيا. أما حزنت لفراقها؟».

«لو اني حزنت لما تركتها. كنت المسؤول الوحيد عن نفسي. ربما شعرت بوطني يشدني اليه. لكن ماذا عنك أنت؟».

مد ساقيه بكسل في اتجاه النار، وقال ليلهيها عن الاهتمام بشؤونه الخاصة:

«لقد عشت في لندن طوال حياتك، انما فهمت من كلامك انك لا تفتقدينها كثيراً».

«ليس كثيراً».

توقفت محتارة. هذه فرصة لتأخذ رأيه في مشكلة شقتها، ولا مفر لها في النهاية الا ان تسأل أحداً. وميريك فيندلي، برغم تعليقاته المهينة على رحيلها، كان أنسب الجميع، فهو عايش أباها لسنوات طويلة، وبالتالي يعرف جون أكثر مما تعرفه. عزمت على سؤاله فقالت بسرعة قبل ان تغير رأيها:

«الأمر يتعلق بشقتي، فأنا لا أعرف ماذا أفعل بها. اذا تركتها فقد لا أجد شقة أخرى في اعتدال ايجارها وأخشى الا أجد أخرى مناسبة على الاطلاق».

«ها نحن نعود الى الاسطوانة ذاتها. تريدين العودة الى لندن».

كان يقرر واقعاً في ضوء استنتاج توصل اليه بمفرده. انتابها الغضب وانعكس في عينيها وهما تلتقيان عينيه القائمتين وتقول:

«انك تتعمد اساءة فهمي وتستمتع بالحكم عليّ بدون ان تعرف شيئاً من الحقائق! من البديهي اني كنت أسكن في مكان ما قبل مجيئي هنا. كنت وأمي نعيش في شقة رخيصة الايجار نسبياً، وهو مدفوع مقدماً لفترة أخرى من الوقت. لكن ليس هذا المهم. لقد تركتها مؤقتاً لأوصل رسالة معينة، وكنت أزمع العودة اليها والبحث عن وظيفة تعليمية في لندن».

«هذه أيضا ليست مشكلة. تقدرين بسهولة ان تجدي عملا كهذا في الجوار».

«هذا ليس بيت القصيد!».

هتفت ثائرة وهي تود لو تنتف شعرها. لكنه ضحك بحرارة ثم قال:

«حاولي ان تشرحي لي بالضبط لماذا تريدين فسخ عقد ايجارها ولا تجرؤين على التخلي عنها في الوقت نفسه».

«أوه... لا تكن سخيفاً».

«لم أقل شيئاً سخيفاً، لكن اذا استمريت ترفضين الايضاح الكامل، فأجوبتي ستستمر ايضا في اثارة غضبك».

«كنت أمهد للتوضيح!».

عبقت وجنتاها، وأسقطت بصرها لتشخص الى النار مجدداً. سقط شعرها على خدها فازاحته في صبر نافد. هل يتوقع منها ان تجمع كل مخاوفها وتطرحها عند قدميه؟ لقد سألته فقط عن الشقة ولم تطلب منه استجواباً قاسياً!

أربكها أكثر حين انحنى صوبها وقبض فجأة على رسغها وقال:

«لا أريدك ان ترهقي مخيلتك المبدع يا آنسة فريزر. خذي كل الوقت الذي تريدين. وبينما تصلين الى نتيجة، سأتسلى بتحضير القهوة لكلينا».

هز كتفيه العريضتين وأطلق يدها ثم وقف يقول:

«قد نصل الى بعض التفاهم قبل منتصف الليل وهذا يتوقف عليك. أما أنا. فلست مستعجلا على شيء».

٥ - تعالي معي

نهضت سو وتبعته الى المطبخ، ورسغها ما يزال متملا من ضغط اصابعه، وسرعان ما امتد الخدر الى ذراعها. كل غريزة فيها اهابت بها الا تشاركه شرب القهوة في هذا الكوخ العتيق، حيث يتولد بسهولة جو من الحميمية تود ان تتجنبه. كانت تدرك احتمال الخطر من جراء احساسها القوي بوجود ميريك فيندلي، لكنها استبعدت جداً ان يكون لديه اي اهتمام شخصي فيها.

فاتها ان ترى المطبخ خلال جولتها الاستطلاعية، ووجدته الآن صغير الحجم، كالذي في شقتها، بالكاد يتسع لشخصين يتحركان فيه براحة. حدقت حولها تتظاهر بالتفرج، وهي لا تشعر الا بالرجل الواقف قربها، وفي عمق عينيه وميض هازىء يتحداها ان تتراجع. بقيت مكانها، بل لم تجرؤ على الاعتذار عن القهوة كي تعطي مبررا لبقائها. ولشدة ارتباكها، راحت تبرر وجودها بطريقة اخرى فتقول:

«استشرت ابي في مسألة رجوعنا للسكن هنا فلم يظهر رغبة في ذلك. لا اقدر ان افهمه كما يجب».

فأدار ميريك بصره الى الأبريق الذي ملأه لتوه، واشعل الغاز ثم ركز الابريق على اللهب العاري، وقال بلطف:

«هل يعني هذا انك لا تريدين العيش معي تحت سقف واحد؟».

تطلعت اليه مستغربة تفسيره وغير واثقة من موافقته عليه. لكنها رفضت ان تزوده بمبرر واحد للشك. وردت بحماسة بالغة:

«انك مخطىء تماماً، فنحن بالكاد نراك ولا ادري ما الذي ادخل هذه

الفكرة الى رأسك!».

«الا تعتبرين نفسك مسؤولة عن اي شيء؟».

هل يلمح الى غيابه المتكرر ام الى الجزء الأخير من عبارتها؟ رفضت الوقوع في الشرك واعتبرت تعليقه تافهاً، فقالت تتابع كلامها السابق:

«انا شخصياً احب السكن هنا، لكنه يرفض بحث الموضوع كلياً».

«اخبرتك سابقاً انه يحتاج الى وقت».

«لبينما يتعافى؟».

«اقصد انه يعجز في الوقت الحاضر عن الارتباط بالماضي اذا انتقل الى الكوخ، فيما اذا بقي معي، في البيت الكبير، فلن يشعر باضطرار للارتباط بأي شيء».

«عندما يكون مرتاحاً، يصطحبني الى غرفة الجلوس ليتأمل لوحة جدتي، وكأنه اذا قارن بيننا يقنع نفسه بأني ابنته فعلاً».

فتح خزانة وتناول منها فنجانين وضعهما على الطاولة:

«اتقصدين القول بأنه لا يشعر بأبوته الحقيقية تجاهك؟».

«اجل، اذا اردت ان تضعه في هذا القالب اعلم انه لا يحبني لكنه يودني ويشعر نحوي بنوع من القربى العاطفية، ولا شيء غير ذلك».

«وانت تتوقعين مشاعر اقوى وروابط امتن؟».

«انا لا اتوقع شيئاً. كانت لي آمال معينة في السابق، والآن لا استطيع تفسير مشاعري».

قطب حاجبيه فتغضن جبينه بشكل جذاب اقلق سو، فيما رف جانب فمه باستسلام، فعبرت الحركة عن ضيق صدره الواسع. قال:

«اسمعي يا سو، قد يكون من الافضل لك ان تنظري الى الموضوع من هذه الزاوية، افترضي نفسك يتيمة او ابنة بالحضانة - سبق ونصحتك بهذا واكتفي بأن تطوري علاقتكما بالتدريج. اذا كان بينكما ود مشترك فهو اساس جيد تبنيان عليه العلاقة. ولكن تخلصي بحق السماء من كل ما لديك من عقد نقص ومشاعر ذنب».

«المشكلة اني لم اعد طفلة، كما ان الاطفال، بصورة عامة، يتقبلون الأوضاع على علاتها، ولا يمكنني ان افعل هذا».

«فهمت، تريدين الاطلاع على اشياء معينة. هيا، اطرحي اسئلتك،

انما لا تمتعضي اذا عجزت عن اجابة بعضها».

«شكراً، لم اكتب قائمة بالاسئلة لذي فقط واحد يحيرني. اريد ان اعرف اي على حقيقته - في العمق، لتسهل عليّ امور كثيرة ربما».

«لماذا؟».

ترددت، وهي تعي غطرسة وجهه الصخرية اكثر من اي وقت آخر. ما اصعب الكلام وتلك النظرة المفزعة تتسلط عليها! تعثرت وهي تحاول صياغة افكارها المكتومة في كلمات:

«امي... لم تؤمن ابداً بضرورة اظهار عواطفها. لا اذكر انها احتضنتني مرة او احاطتني بعطف. لم تكن تعطف على مطلق انسان. احياناً كنت اسرح في تحليلي، فأعتقد انها متجمدة جزئياً وعاجزة عن الدفء والانفتاح، وعن كل الاشياء الطبيعية العادية التي يجب ان تتوفر في الامهات. لكن يبدو اني عاجزة عن التفاهم العاطفي مع والدي ايضاً».

«وانت ترفضين هذا الوضع، فلا تتوقفين عن الغوص والحفر والتشريح، وتتساءلين الآن عما اذا كنت ورثت ربما، خصائص مضادة عن كليهما؟ عليك اذن ان تقنعي رأسك الجميل بأن التجارب القاسية كالتي عاناها والداك، من شأنها دائماً ان تترك جروحاً بدون ان تؤثر بالضرورة على اولادهما. فما الذي يحملك على الاعتقاد بانك باردة وعاجزة عن كل التجاوبات الطبيعية؟».

«انك تتجنى علي بدل ان تساعدني، كنت اشير فحسب الى احتمال معين».

«وانا كنت اشير فقط الى انك تبدين قادرة على التوافق معي وبالتالي انت انسانة طبيعية. لكن اذا اصريت على متابعة الاستقصاء، فهناك اسئلة يجب ان تطرحيها على نفسك... مثلاً، كيف تتجاوبين عندما يعانقك رجل ما؟ هذا سؤال قد استطيع اجابتك عليه».

طغت السخرية على صوته والهبت صراحته وجنتيها.

«لا افهم ما ترمي اليه؟».

غمغمت وهي مدركة تماماً لقصده، انما عاجزة عن الاعتراف له بانها ما احست يوماً اية اثارة في موقف كهذا. اترى البرودة هي السبب؟

تأملها بخبث، وقال:

«يمكنني تبيان ذلك ان شئت، لكن اساليبي قد لا تعجبك».

«اوه!».

هتفت سو ومحياها يزداد اشتعالاً وقد تأكدت من نواياه تماماً. ثم اشاحت عنه وقالت:

«اعتقد اننا نتحدث عن شيئين مختلفين كل الاختلاف».

«لكن كليهما ملتصق بالآخر يا صغيرتي الجبانة».

منذ دقيقة وصفها بالجمال فارتجفت، والآن يسميها جبانة! تراجعت قليلاً وركزت عليه بصراً مليئاً بالاستياء وقالت:

«انا لا اشاطرك هذا الرأي. ولو ان مشكلاتي تنحصر في وحدي لما تطرقت مطلقاً الى الموضوع. لا ابغي الاساءة الى احد».

عاد يتفحص وجهها وضاق بهما المطبخ فجأة. احست حرارة تعبر جسمها، فارتفعت يدها لا شعورياً الى ياقة قميصها تفك الزر الاعلى فيلتمع اسفل عنقها ناعماً بضاً. كان لديها شعور مخيف بانها تختنق. ما كان يجب ان تتوقع منه نصيحة منطقية، ولا توجد مساعدة حقيقية في ذينك الحاجبين المقوسين بوقاحة، ولا في تينك العينين الساخرتين!

وقف يسد مدخل الباب وكأنه حزر رغبتها في الهرب، وقال بصوت متكاسل:

«لا اعتقد انك تشبهين امك في اي شيء. فهي برغم سيئاتها، كانت ولا ريب امرأة واثقة لا تخشى اتخاذ القرارات وهذا غير موجود فيك، اذ تطلبين من الغير دائماً ان يقرروا شؤونك بالنيابة عنك. حسناً. لنبدأ بالشقة التي يمكنك اخلاؤها فوراً، واذا اردت ايجاد اخرى سأجدها لك. ثانياً، لا تفكري في ايجاد اي عمل في الوقت الحاضر، ولا في الانتقال من البيت الكبير للسكن هنا. هذا النوع من القرارات لا يستعصي على ذكائي، لكن لا تطمعي كثيراً بكرمي لانه محدود، فضلاً عن وجود اشياء لاحقة يجب ان تقرريها بنفسك».

«مثلاً؟».

خرج السؤال كشهقة غاضبة من غروره المتناهي بدل ان تشعر نحوه بالامتنان.

اخذت تبتعد عنه، فقبض على خصرها وقهقه عالياً ثم قال:

«مثلاً، عندما تلتقين الرجل المناسب يا عزيزتي، سو، وحيث انك لم تتأكدي انه كذلك، فلا اريدك ان تهرعي الي تطلبين النصيحة».
غامت عيناها الرماديتان بغضب عاجز وهي تحاول الافلات من اصابعه القاسية والرد عليه بضحك مماثل، فاخفقت وقالت تثرثر:
«لا احسبني سأزعجك عندما يحصل هذا، فانا قادرة تماماً على اختيار اصدقائي».
«اشك في هذا، فضلاً عن ان اختيار الصديق يختلف عن اختيار الحبيب».
كان صوته وقحاً كقبضته على خصرها. توقفت عن المقاومة اذ شعرت بضعفها امام قوته الخارقة، الى جانب شعورها بأنه كان مستلذاً بحرقصتها، ربما لانه ينوي معاقبتها قليلاً على مضايقته بمشكلاتها، ولديه ما يكفيه من مشكلاته الخاصة.
انسكب صوته في اذنها خافتاً متهكماً وهي لا تستطيع حراكاً:
«اذا اتحت الفرصة لتجاوباتك العاطفية ستجدينها سليمة على ما أظن. لا يمكنك ان تخفيها في ثلاجة الى الأبد».
استدارت كما العاصفة، تحاول الدفاع عن هشاشتها، وعيناها تشتعلان بالعداء. هتفت بانفعال طائش:
«ليس من شأنك ان تحلل تركيبتي العاطفية. انت لست وصياً علي!».
«انا تحت تصرفك في اي شيء، لكن بثمن معين».
«قد تكون مديراً لوالدي انما لا تتوقع ان تديرني انا!».
«اهذا رأيك اذن؟».
شمخ بتهديد واضح وهو يحدق الى بشرتها الناعمة ولمعان شعرها الاشقر الكث، واضاف:
«اذا كنت اخطأت احياناً في فهم الناس فانا اكيد باني لم اخطىء فهمك. يبدو ان الكلام لا يكفي لاقناعك وهناك طرق اخرى قد تعجبك اكثر».
نقل يديه الى كتفيها بتمهل وكأنه يبغي حبس النفس في حلقها. كان يسجنها بين الحائط وبينه، فاعتراها ارتجاف ارخى مفاصلها. غلت الماء في الابريق فاطفأ الغاز باحدى يديه وهو ما يزال يحبسها قال وعيناه تفترشان

محياها الشاحب:
«لقد نجحت في اثارة فضولي وغضبي معاً، وهذا لعمري مزيج خطر، اليس كذلك؟».
خيل اليها انها شعرت بذراعيه قبل ان تعانقاها، فحاولت يائسة ان تحافظ على تقلص جسمها، لكن التوقع شوش ذهنها وشحذ تجاوبها في الوقت نفسه، فتسربت قوتها وكأنها مصممة على بعثرة بقايا مقاومتها حين شدها اليه وعيناه تطعناها فيما اغمضت هي عينيها هرباً من قسوته.
ومع ان الغريزة اهابت بها الا تقاومه، فقد رفض جسمها البقاء جامداً بين ذراعيه، وارتفعت يداها تحاولان دفعه عنها، فلم تصلا الى ابعد من صدره حيث بدد ملمس عضلاته القوية كل صمود وتعقل. احست شيئاً ينفجر فيها كما الزجاج المتحطم ويجعلها تلف ذراعيها حول عنقه، فتلمسان المفرق بين الشعر والجلد في اسفل رأسه.
اخيراً ابتعد عنها قليلاً ليتأمل وجهها العابق وهو يزيح الخصلات المتناثرة على جبينها، فأحست سو بما تملكه يده من خبرة في منعطفات الحب، واحستها في ذلك الخط الرفيع الفاصل بين الشبان الاغرار الذين عرفتهم وبين هذا الرجل الذي يعرف ماذا يفعل. كان قلبها يخفق بتزامن مع نبضات عروقها، حين رفعت اهدابها الكثيفة وحدقت اليه مذهولة.
لقد اثارت ذراعاه نوعاً من السحر المجنون، كما الطيران على ظهر شهب لامع، وفجأة ودت لو يستمر. فقالت هامسة:
«ارجوك. . .»
لكنه تراجع قليلاً وقال:
«بماذا تطالبين يا آنسة فريزر بتكرار الفعل ام باطلاق سراحك؟».
صوته دل على تهكم خفي وعيناه العميقتان تقولان عكس ذلك. وبرغم ذلك اجفلها سؤاله، وجعلها تعود الى رشدها وتكتم الاعتراف بانها لا ترغب الا في البقاء بين يديه. لكنها قالت وهي تحاول التملص منه:
«كنت اطالبك باطلاق سراحي! على كل، اذا كان عناقي قد امتعك، فاعتبر ذلك ثمناً للوقت الذي صرفته في الاستماع الى حديثي السخيف».
«مهلاً يا آنسة البلاهة والجليد! ان اللواتي يستمتعن بعناقي قلما يستطعن، بعد العناق، ان يلقين محاضرة طويلة كهذه. يبدو اني بدأت افقد

مهارتي!

«انت وحش!».

لم يسعفها ذهنها باكثر من هاتين الكلمتين، فجاء انتقامها ضعيفاً عديم التأثير، اذ استمر ميريك يتأمل محياها الغاضب وشفتيها المرتجفتين بأقصى درجات الارتياح، ثم قال:

«لا داعي لان تشكي في تجاوباتك العاطفية من اليوم فصاعداً، وقد يأتي يوم تعترفين فيه بفضلي بالرغم من تعليقاتك المهينة».

«انت تثير الكراهية!».

تملكها الحنق والشعور بالذل، فهو تسلى بسذاجتها وارضى غروره بتجاوبها. حاولت جاهدة الافلات منه وآلمتها نبضات عرق في اسفل عنقها كان ميريك يراقبه باستغراق وكأنه في زمن ومكان اخرين. ثم افلتها بغتة فكادت تسقط ارضاً. استدار بسرعة الى الابريق الساخن، وشرع يسكب الماء في الفنجانين.

وضعهما على صينية مع وعاء سكر وقال لها:

«افتحي الباب عني يا شاطرة، وهيا نشرب القهوة في هدوء».

حدجها بنظرة ثاقبة فأحست دموعاً مفاجئة تلسع جفنيها. فتحت الباب كما طلب، وسبقته الى غرفة الجلوس قبل ان يلحظ دموعها.

عادت الى مقعدها قبالة الموقد، ولم تع وجوده الا حين اجفلها هتاف مكتوم جعلها تستدير في مقعدها مستطلعة. انتابها الفزع حين وجدته يركز عينيه على الرسالة التي كانت تكتبها الى تيم. تذكرت كلماتها واحدة واحدة فقلقت وتمنت لو انها خبأتها بشكل ما. الآن فات الأوان! قرأت في وجهه الشك والازدراء حين تناول الصفحة.

«ومن يكون تيم؟».

سأل وهو ينظر بطرف عينه الى وجهها المضطرب الصامت.

فتمنت لو تهرب او تنشق الأرض وتبتلعها. كان يقف كقاض جبار، يشتت ذهنها وهي في اشد الحاجة اليه، وفي الاخير، غمغمت قائلة:

«مجرد صديق».

فرد في جفاف متناه وهو يتفحصها كما النسر:

«مجرد صديق... لماذا تكتبين بهذه الطريقة، وكأنك ربحت جائزة

مالية كبرى؟».

فأجابت متلعثمة:

«لا ادري... كيف توصلت ... الى هذا الاستنتاج».

فهمت سو قصده تماماً لكنها خشيت الاعتراف له بذلك وهو على تلك الحالة من الغضب. لم تكن تقصد كتابة تلك العبارة، وكانت على وشك تمزيق الصفحة. فانطلق صوته قائلاً:

«يؤسفني ان لا اصدق كلامك، ليس بعد ان لمست تجاوبك بين ذراعي، فالتي تتجاوب هكذا، لا تخلو حياتها من الصداقات الحبية!».

«ليس الأمر كما تظن».

«انا لست مغفلاً ولا غبياً. ما هي خطوتك التالية؟ اهي استدعاء عزيزك تيم ليعاين ارض الميعاد؟ ليتعرف الى ارثك العظيم؟».

«كيف تجرؤ على هذا القول! انك مخطىء تماماً في افتراضاتك الرهيبة! كل ما في الأمر ان تيم كان صديقاً رؤوفاً بعد وقوع الحادثة».

«من السهل على مطلق رجل ان يكون رؤوفاً وهو بين ذراعيك يا سو».

«انت لا تحتمل، وتتعدى صلاحياتك!».

يأسها الشديد جعلها تقذف هذه الكلمات بجرأة، وتضيف مرفوعة الرأس ثائرة:

«لم يطب لي عناقك كما تعتقد، وقوتك الوحشية هي التي اضطرتني للاستسلام».

سمعته يضحك في غموض. فشعرت للمرة الثانية بانها اثارته للحظة عابرة. قال:

«افضل الا اتهمك ببعض الكذب يا سو، وفي مرة مقبلة، سأعمل على امتاعك».

«اني اكرهك احياناً!».

«لا تهدري عواطفك بهذا الشكل».

قال هذا وهو ينظر بتجهم الى وجهها الملتهب، لكنه اضاف بصوت متزن وكأنه آت من مكان سحيق:

«ليتك تنتظرين لتتأكدي من مساحة الاملاك قبل ان تفرغي جعبتك. كنت انوي دعوتك للقيام غداً بجولة على الأراضي، اذا شئت».

«وهل لدي خيار اخر؟».

يمكنك الرفض اذا استطعت اعطاء عذر مناسب لجون الذي يصر على وجوب هذه الجولة. انا لا احب ان ارغم احداً على رفقتي، لكن البراري كثيرة وغير آمنة لتجوالك فيها بمفردك، اضافة الى انك لا تعرفين حدود الأراضي».

«لقد اهملت هذا الأمر طويلاً. تيم ماسون، كان يعرف على الاقل كيف يعاملني - كسيدة».

«الفضل لاتزانك».

ثم نظر الى الرسالة واضاف بصوت ساخر:

«لكن تيم استفاد على ما يبدو من صداقتكما البريئة. انما اخبريني، الا تتعبين ابداً من معاملته لك، كسيدة؟».

«ربما كنت تعتمد اسلوباً اخر في جنوب افريقيا قد لا يعجب كل الفتيات».

كان صدرها مفعماً بالخيبة والمرارة، فتاقت الى ذكر كارلوت بالاضافة الى شكوكها الخفية، لكنها لم تجرؤ. تبخر غضبها فجأة، فأشاحت عنه متعبة خائرة. ثم اضافت باختصار وبكل ما تملك من كرامة:

«اعتقد انه من الافضل لنا ان نرجع الى البيت».

فهز كتفيه العريضتين وخلت عيناه من السخرية ومن الغضب. طوى الرسالة بعناية وناولها اياها، ثم اطفأ المدفأة وقال وهو يستعجلها في الخروج:

«اذا خطر لك ان تبعثي رسالة ثانية الى لندن، فاكتبي الى محاميك بدلاً من تيم واطلبي اليه ان يدرس موضوع الشقة».

تأجلت الجولة المزمعة في غلينرودن بسبب الطقس. فخلال الأيام القليلة التي تلت لقاءها العاصف بميريك، هطلت الامطار في تواصل ولف الضباب التلال. بدا الشتاء مستعجلاً في الحلول والخريف في بدايته، لكن جون طمأنها بأن ايام الصحو آتية ولا ريب، فما بين تشرين وتشرين صيف ثان، تبعاً للمثل.

«كل هذا هو جزء من طبيعة اسكتلندا».

علق قائلاً وهما يجلسان في احدى الامسيات في غرفة الجلوس، يراقبان

المطر يجلد زجاج النافذة. كانت الريح تسانده، فترنح اغصان غابة الصنوبر العتيقة القائمة على حافة الحديقة. كانت تجرف كل ما امامها وتبعثر باكورة الاوراق المتساقطة على مروج الحديقة وتطرحها قطعاً رائعة من الذهب.

«اتقصد الطقس؟».

سألت سو وهي تدير بصرها من النافذة وتتأمل بتكاسل الحطب المشتعل في الموقد. كان جون في صحة جيدة هذا اليوم برغم العاصفة في الخارج، وقد قضيا معظمه منشغلين في الكتاب وحيث اكملا مسودة فصل كامل عن تاريخ ثكنات روثفن التي شهدت المرحلة الأخيرة للثورة اليعقوبية، وحيث تجمع متمردون من اتباع الملك تشارلز ادوارد، بعد معركة كاللودن، ليتلقوا بعد ذلك الأوامر المؤلمة بالانفضاض. كانت طباعة سو على الآلة الكاتبة تتحسن يومياً، كذلك استيعابها لتفاصيل تلك الثورة، مما سر والدها وجعله يعترف بأنه شك مرة في قدرته على انجاز فصل واحد من الكتاب.

الآن، وبعدما ارتاحت، احست سو بالانتعاش فقررت الخروج للتنزه، واكدت لجون انها لن تذهب بعيداً حين رأته ينظر بقلق الى انسكاب المطر. داعبت اذني الكلب بروس وقالت:

«بروس اصبح كسولاً مثلي ولذا سآخذه معي.

سأصطحب كلب ميريك ايضاً، فهو على الارجح لم يفعل اليوم شيئاً، اقصد الكلب، سوى الجلوس في سيارة اللاندروفر، واشك انه فعل».

لاحظ جون شحوب وجهها فاومأ موافقاً وقال:

«حسناً، اذهبي الآن، فالطقس يصحو احياناً في هذا الوقت. ستجدين ركس في غرفة المكتب مع ميريك الذي يراجع بعض الحسابات».

قفزت سو على قدميها، وحاولت اخفاء لهفتها وهي تخرج مهرولة لكنها لم تستطع كبح خطواتها الراقصة. لم تر ميريك الا لماماً منذ لقائهما في الكوخ، وبالرغم مما جرى بينهما لم تتوقف عن التفكير فيه. من المستغرب ان يعيشا في بيت واحد ولا تراه الا نادراً. كان يتعشى عادة خارج البيت ويتزود بساندويش للغداء، اما الافطار فكان يتناوله باكراً جداً وقبل ان تنهض هي من النوم. ولذا، وجدت نفسها احياناً، تتوق الى حلول الشتاء وسهراته الدافئة المكنونة حيث سيضطر ميريك لالتزام البيت.

وقفت عند الباب تنادي بروس وتقول لجون باسمة:

«لقد انصرفت السيدة لينوكس لكني ساعود باكراً لاهيء العشاء، واذا احتجت الى شيء فميريك قريب منك».

دخلت المطبخ وهي تدندن لحناً طروباً، وتناولت معطفها الواقي من احدى الخزائن، ثم حشرت شعرها الاشقر تحت قبعة مماثلة. هرولت تقطع البهو الواسع، وطرقت باب غرفة المكتب بسرعة ثم فتحته.

ارتدت على عقبيها منجفلة، واحست النفس يتوقف موجعاً في حلقها. كارلوت كانت ايضاً هناك، بين ذراعي ميريك! تجمدت ورعشت. صحيح ان الضمة كانت بسيطة، لكنه كان يبتسم لها برقة، وبدا وجهها قريباً ومتألقاً. ولاحظت سو بغضب، ان ميريك لم يبد اي انفعال حين رفع رأسه ورآها واقفة على العتبة. اجتاحها عداء شديد تجاههما، وبذلت جهداً كبيراً لتظل في مكانها تنظر اليهما باسمة، لتخفي عنهما اضطرام مشاعرها الرهيب.

تجاهلت القاء التحية على كارلوت، ولما طال الصمت قالت تبرر تطفلها بارتباك:

«كنت ساخرج مع بروس للتنزه، ففكرت ان آخذ ركس كذلك».

لم يتحرك ميريك او يتكلم، سوى انه رفع حاجبيه متساءلا ورمقها متلذذاً بعينيه البارقتين:

اما كارلوت، فتألق محياها بتشف وهي تتأمل ارتباك سو، ثم غمغمت:

«لا تدعيني اؤخرك. لقد خطفت رجلي لأرى ميريك. خذي الكلب، انه هناك».

لم يظهر على ميريك انه انتبه لنبرة كارلوت الوقحة والناعمة في آن، اذ لم يطرف له جفن. تنهد بأسف وهو يبعد ذراعيه عن الفتاة وقال لها وليس لسو:

«ربما حزرت الآنسة فريزر بأني توقفت عن عملي فجاءت لتتأكد. انها تكتب منذ الصباح على آلتها الكاتبة، وتحث الجميع على الكد المتواصل».

تجاهلت تعليقه الساخر، ونادت بحدة على ركس، ثم بادلته ابتسامته الجافة بنظرة جوفاء واجابت في برود:

«اعتذر ان كنت قطعت عليكما شيئاً. الى اللقاء».

لم تأبه لواجبات الضيافة التي تقضي عليها بأن تعرض على كارلوت

فنجاناً من الشاي على الأقل. لم تكن لديها اقل رغبة في استضافة الفتاة وتحمل لسانها اللاذع، فضلاً عن ان ميريك سيقوم بالواجب - بالاضافة الى اشياء اخرى. وقبل ان تغلق الباب لمحت فنجانين فارغين مما اكد لها ان قلقها الضيافي لم يكن في محله.

اضطرم قلبها بغضب غريب وهي تخرج من البيت راكضة وكأن عدداً من العفاريت يلاحقها. لكن حين ابطأت في السير على الدرب العشبي المؤدي الى الغابة، اضطرت للاعتراف بانها كانت سخيفة بعض الشيء. فمن الواضح ان ميريك على علاقة ما بالفتاة، لكن من الواضح كذلك ان عواطفه تخصه هو وحده.

حاولت ان تجمع شتاتها وتراقب سلامة الكلبين وهما يوغلان بين الاشجار. من الصعب عليها في هذه الغابة البدائية ان تنكر حقيقة انجذابها الى ميريك فيندلي، بل هي على وشك الوقوع في حبه وستقع كلياً عما قريب. فيا لتعاستها وحظها السيء! كان المطر يلسع وجهها، والريح تهاجم ثيابها فلم تبال لأن عاصفة الطبيعة وجدت صداها في عاصفة قلبها.

احست عواطفها تنفلت من عقالها وتجري في كيانها، فاجتاحتها رغبة وحشية في العودة ركضاً واتهامه بالخيانة. رغبة سخيفة بل اسخف من افكارها السابقة. انها تزداد تعاسة، ولهذه التعاسة اسم اخر. هو الغيرة القوية المحضة.

ضاقت ذرعاً بنفسها، فتوقفت تستند الى شجرة... وتتوق الى قدر من رباطة الجأش. حمداً لله على ان لا احد هنا يشهد ضياعها. عناق ميريك لها ما كان الا نوعاً من العقاب لانها حطت من مقامه كمدير اعمال. لا تدري لماذا ثارت حساسيته تجاه امر بسيط كهذا. لقد راقبت الأمور طوال هذا الوقت وادركت في النهاية، استحالة سير الأعمال من دون وجوده. ابوها مجرد صورة، وهي تستبعد ان يكون لها هي اي تدخل فعلي في قضايا غلينرودن. لكنها يجب ان تصر يوماً على معرفة مركز ميريك بالتحديد، وأن ترفض البقاء على الهامش بسبب اجوبة جون المراوغة.

وعادت تتمنى لو انها عرفت اباها منذ الطفولة لانها لن تستصعب في هذه الحالة ان تلح على المعرفة، وتتوقع الصراحة في معظم القضايا، وتعتمد جزئياً على الحدس الذي توجده سنوات العشرة الطويلة. وما يؤلمها اكثر،

شعورها في معظم الأحيان بانها غريبة وفاقدة تماماً للدفء والراحة اللذين تزودها علاقة اعمق. ليس امامها الا حل عاقل واحد هو الرحيل، وقبل ان تهوس كلياً بغلنيرودن وسكانها. لكن هذا الحل، اقرت بقناعة كاملة، كان ايضاً طريق الهلاك!

لدى عودتها، استغربت ان تجد كارلوت جالسة في السيارة تنتظر قدومها. لقد تأخرت في الرجوع، وهدرت الوقت في محاولة فاشلة للتخلص من اضطرابها. كان المطر قد انقطع تقريباً، كما تكهن جون، فسارت متمهلة في الغابة المظللة الجافة. الشمس اطلت خفيفة من بين الغيوم الكثيفة، ولمست اشعتها رؤوس الجبال بلون وردي واخر اصفر، فأحدثت شبكة براقة كما الفسيفساء ظهرت من بين اغصان الصنوبر. كان في هدوء الغابة جمال خاص احبته سو وكرهت ان تتركه. لقد حدثها جون مراراً عن الغابات وعن تمازجها بحياة برية خاصة بها، لكن سو لم تر اثراً للطيور والحيوانات التي وصفها لها. ربما لم تعرف اين تبحث عنها، ولعل الجرأة تواتيها، فتطلب الى ميريك ان يريها اياها، في يوم ما.

وصلت مبللة الثياب فلم ترحب بمرأى كارلوت الجالسة في السيارة، لكنها ابتسمت لها في ادب وقالت:

«لقد سرقني الوقت ويجب ان اسارع في تهيئة العشاء».

وقبل ان تلجم لسانها سمعت نفسها تضيف ولتعوض ربما عن تقصيرها السابق في الضيافة:

«هل تبقين لتناول العشاء معنا؟ سيكون الطعام بسيطاً لكن اهلاً بك ومرحباً».

ابتسمت كارلوت بدورها، وكالعادة، لم تصل الابتسامة عينيها، وقالت:

«لا داعي لازعاجك لان ميريك دعاني الى تناول العشاء في بيرث. سيمر علي بعد ساعة، لذا لست وحدك المستعجلة».

احست سو بوجهها يتصلب فجأة. فكارلوت ما انتظرتها الا لتزف اليها هذا الخبر! كان يجب ان تعلم ان الانتظار لم يكن مجرد بادرة محبة. هزت كتفها واجابت:

«لن اؤخرك اذن عن موعدك. على اي حال، ان ميريك قلما يتعشى

هنا».

وللمرة الثانية، التمعت الشماتة في عيني كارلوت، وبدا ان سبب انتظارها كان ذا شقين اذ فاجأت سو بقولها:

«انا وميريك صديقان قديمان ولطالما تعشينا معاً. لا اعرف مركزه بالضبط بالنسبة الى جون والى غلينرودن، لكن بما اني سأرث كل شيء في يوم ما، فلن اناقشه الآن في سير الأمور».

حدقت اليها سو في جمود، وقد احست بالبديهة ان تصريح كارلوت كان نوعاً من التحدي، اذ شعرت ان الوقت حان لتطلع سو على مكانتها الحقيقية بالنسبة الى الارث، ولتحذرها في الوقت نفسه من مغبة الوقوف في طريقها. لكنها كانت تحاول ايضاً ان تستكشف مدى اطلاع سو على اوضاع الاملاك الحقيقية.

هذه الفتاة لا تتوانى عن اي شيء لتحصل على المعلومات التي تريد، ولا يهمها اي اسلوب ملتو تلجأ اليه لتحقق مأربها. اجابتها سو في برود:

«الذي اعلمه يا كارلوت، ان ميريك فيندلي هو مدير الأعمال فحسب، وليس في الأمر اي لغز. لذلك اذا كنت تسعين الى زوج ثري، فنصيحتي ان تبحثي عنه في مكان اخر».

ساد صمت ثقيل حين تراجعت سو خطوة الى الوراء، ووقفت تنتظر بجمود وتهذيب رحيل كارلوت. جعر محرك السيارة، وحين اغلقت كارلوت الباب وانزلت زجاج النافذة، كانت لديها عبارة اخيرة قالتها بثقة كاملة لولا التورد البسيط في خديها:

«اليك بهمسة صغيرة يا آنسة فريزر. انا ما احببت ابداً من يقف في طريقي. تذكري هذا جيداً والا كنت الخاسرة!».

الرسالة التي انتظرت سو مجيئها من لندن وصلت صباح اليوم التالي وبأسرع مما توقعت. قرأت مضمونها بسرعة، وكانت على وشك الانتهاء من فطورها حين اطل ميريك ودخل المطبخ.

شملت نظرته الرسالة ووجهها المفكر فقال:

«ارجو ان تكون الاخبار جيدة؟».

رفعت وجهها اليه وقد استغربت مجيئه في هذا الوقت. لاحظت خطوط ارهاق حول فمه وتعباً خفيفاً في عينيه. لا شك انه سهر طويلاً ليلة امس!

اجابته:

«الرسالة من المحامي وليس فيها ما يزعج».

انتظر بحاجبين متسائلين، فأضافت بعد تردد:

«انه لا يجد اية صعوبة في تأجير الشقة مجدداً لأن هذا النوع من الشقق مطلوب بكثرة، لكنه يرتأي ان اعود الى لندن كي اشرف بنفسي على بيع بعض الاغراض الخاصة. كلها لن تساوي كثيراً، اقصد على صعيد الاشياء المستعملة، اذ لم نكن نملك اية تحف. لكن هناك ملابسي وكتبي واشياء اخرى مختلفة علي ان افرزها بنفسي».

«وهذا طبيعي».

تقبل شرحها المشوش بايماءة مختصرة وسكب لنفسه فنجاناً من القهوة الجاهزة على النار وقال:

«وانا تلقيت ايضاً رسائل من لندن هذا الصباح، وفيها ما يضطرني للذهاب الى هناك. قد تكون فكرة جيدة ان تسافري معي، بعد يومين ان شئت».

٦- أرجوك... أرجوك

الطائرة التي أقلتها من مطار تورنهاوس، بدت مليئة برجال الأعمال والسياح الأثرياء. لجأت سو بسرعة الى مقعدها، ليس بدافع التعب، بل لأنها لم تأت مع ميريك بمفردها، اذ كانت معها كارلوت. لقد مرّا عليها في بيرث بالسيارة، وها هي تجلس أمامها مع ميريك وشعرها الأسود يلامس كتفه.

في الواقع، لم يكن ميريك المسؤول المباشر عن مجيء كارلوت، وهذه الحقيقة شكلت ذرة التعزية الوحيدة التي استطاعت سو أن تجنيها من حصاد الوضع الفاشل... كارلوت جاءت أمس تزورهم، فتحدث جون عفوياً عن رحلة سو المقررة، وذكر ان ميريك سيذهب ايضا. وهنا، تصنعت كارلوت، الحاضرة البديهة دائماً، البهجة، وقالت انها فرصة مثالية لتزور أمها القاطنة في كنت ولتستمتع بمرافقتهما.

استغربت سو ان تعلم بوجود أم كارلوت على قيد الحياة، ثم تذكرت ان الفتاة أتت على ذكرها حين التقتها وميريك لأول مرة في ادنبره، حيث كانت ستذهب برفقة ميريك لزيارتها. لكن سو تساءلت لماذا لا تعيش مع أمها، ولما طرحت السؤال على جون، وكانت كارلوت خرجت تبحث عن ميريك، أجابها في اختصار:

«أمها تزوجت ثانية، ولكن كارلوت، لسبب او لآخر، لم تنسجم مع زوج أمها، فانفصلت عنها في السكن. هي وأمها تتزاوران بالطبع وعلاقتهما تقف عند هذا الحد. ربما كان ذلك أفضل للطرفين لأن كارلوت تحب السيطرة».

وقالت سو لنفسها، وهي تربط حزام المقعد تلبية لتعليمات المضيفة، من الواضح ان لكارلوت عذراً شرعياً لرحلتها. واحتراماً للحقيقة، لا يجب ان تسميه عذراً بل مبرراً، فالفتاة تزور أمها كثيراً وبمفردها، وربما أحبت هذه المرة ان تسافر معها لتستأنس برفقتها.

كل هذا التعقل من جانب سو، لم يمنعها من التطلع في حسرة صوب ميريك لدى اقلاع الطائرة. كانت لأول مرة تسافر جواً، وبالرغم ان ميريك لا يعرف هذا، فقد ودّت لو انه جلس الى جانبها. كان جارها سائحاً يبدو عليه التعب ونصف نائم تقريباً، مما دل على اعتياده السفر جواً. أغمضت عينيها بشيء من الخوف حين ارتفعت الطائرة الضخمة في الفضاء، وحاولت تركيز أفكارها على شيء آخر.

لما اقترح ميريك ان تسافر معه، وكان ذلك في المطبخ قبل اربعة أيام، لم تقتنع في سهولة، وما تزال حتى الآن تشك في صوابية قبولها. فتحت عينيها بسرعة وحدقت الى رأسه وكتفيه، تتذكر نقاشها وكيف حاول اقناعها بمرافقته... قال آنذاك مؤكداً:

«يقضي التعقل ان نسافر معاً. فقد تحتاجين الى مساعدة ما، وصديقك تيم ماسون قد لا يكون موجوداً أو يكون مشغولاً».

فوجدت نفسها تعارض بحرارة وبدون ان تقصد:

«يجب ان يعلم تيم...».

«يعلم ماذا؟».

«بأني سأتخلى عن الشقة، فهو كان يطل عليها في غيابي».

«هذا يعني انه يحمل مفتاحاً لها».

«ليس الأمر كما تظن! لم أجد احداً سواه يعتني بالشقة».

«هذا ما تقولينه لي باستمرار يا حبيبتي سو، وأخشى انك بدأت تستهلكين طاقتي على التصديق».

أمس مساء، سمعته يقول لكارلوت «حبيبتي». أليس هناك حدود لغروره؟ أجابته حينها بجمود:

«فكر بالطريقة التي تريد اذ يبدو انك تبني أسوأ الظنون على مطلق شيء أفعله».

فحدّق اليها للحظة بدت طويلة متوترة، ثم تخلص من مزاجه الأسود

لاوياً شفتيه بسخرية وبما يشبه الابتسامة، وقال:

«اعتبري ظنوني غيرة اذا كان هذا يريحك يا سو، وهناك أخريات كان يسعدهن جداً اعتقادهن بأني أغار عليهن».

«أنت تغار؟».

رفعت حاجبيها لتصبغ عبارتها باحتقار شفاف، فقست نظرته البراقة بما يشبه التهديد.

وفجأة، تحولت ابتسامته الجافة الى ضحك، وقال في مرح ساخر لم يحاول اخفاءه:

«عندما أفكر في ضربك، اجدني في الوقت نفسه، ارغب في شيء آخر! لنعد الى حديثنا السابق كي نأمن السلامة».

وفيما كان قلبها يتخبط بين جنبيها، راح يتحدث في راحة حول الطيران الى لندن في ظرف يومين، قائلاً ان الرحلة من ادنبره تستغرق ساعة فقط ولم يقل شيئاً عن التكلفة! لم تكن لديها أية فكرة عن المبلغ الذي ستدفعه، وعندما سألته ذلك لتجس نبضه، قال:

«لا يقلقنك موضوع التكاليف، فريع غلينرودن سيتكفل بها. لقد عملت بجد في الأسابيع الأخيرة، واعتبري مصاريف الرحلة دفعة من راتبك».

تقلصت يداها بغضب في حضنها. كم يحب ميريك ان يسيطر بعنف على مشاعر الآخرين! تعليقاته القليلة المبهمة، أفهمتها بوضوح انه على علم بوضعها المادي الشحيح. ودت وقتها ان ترفض عرضه بجواب ثائر وقح، الا ان شيئاً مجهولاً كبحها، فانقضت اللحظة التي كان يمكن ان تسجل رفضها، واكتفت باعتراض آخر، خرج من شفتيها ضعيفاً:

«هل يصح ان نترك أبي معاً وهو مريض الى هذا الحد؟».

«الى هذا الحد؟».

ثم أضاف:

«أجل، انه انسان مريض، لكنه قد يستمر هكذا لسنوات طويلة. حالته ليست خطيرة فصحته تتحسن ما بين نوبة وأخرى، وأعتقد اننا نستطيع تركه ليومين في رعاية السيدة لينوكس، فهي سبق واعتنت به من قبل، وهناك عمال كثيرون سيساعدونها اذا احتاجت الى أية مساعدة».

ومع ذلك لم تستطع طرد مخاوفها، وفي الوقت نفسه، لم تقدر ان تقاوم فكرة السفر معه. السبب الحقيقي لذهابه بدا لها غامضاً، وداخلها شك، حاولت طرده، بأنه قرر الذهاب ليؤمن عودتها بنفسه. من جهة أخرى، قد يكون جون هو الذي طلب اليه مرافقتها. وبغض النظر عن السبب، كانت وقتها في حالة نفسية سيئة جعلتها تتعلق بحبال هوائية.

كانت الطائرة مريحة ودافئة وقد سرّها هذا، لأن معطفها كان رقيقاً جداً بالنسبة الى برد اسكتلندا الخريفي. ستأتي بثيابها الشتوية من الشقة، وستكتفي بها، برغم خروجها عن الموضة، لبينما تشتغل فتتمكن من شراء ثياب جديدة. بعد الاقلاع، بدأت تستمتع بالرحلة، فهذه أول سفرة جوية تقوم بها، واثارة التجربة ازالت بعضاً من وجومها السابق. كان مشهد الجزر البريطانية الممتد تحت أبصارهم يبهر الأنفاس، وقد بدا من هذه الزاوية مختلفاً تماماً. وبرغم انها فشلت في تحديد معالم كثيرة الا ان المشاهدات استحوذت عليها واشغلتها عن التفكير في الشخصين الجالسين أمامها.

وصلوا بسرعة الى غاتويك، بعد ثلاث ساعات وقليل من مغادرتهم غلينرودن، وهذا يعني ان الرحلة من ادنبره استغرقت ساعة فقط. كان الوقت صباحاً ولم تكن تشعر بأقل تعب، وفي خلال وقت قصير أوصلها ميريك الى شقتها في كنسنغتون.

طلب الى سائق التاكسي ان ينتظر ورافقها الى البوابة. دعته الى الدخول فرفض، لكنه بقي في مكانه ينتظر وهي تنكش في حقيبتها بحثاً عن المفتاح. سألها وعيناه تركضان على وجهها الشاحب:

«هل ستكونين في خير؟».

«طبعاً».

أجابته ونظرها يتجه بلا تعمد الى حيث كانت كارلوت تنتظر في التاكسي. لا جدوى من الاعتراف له بأن هواجس كثيرة تحيط بها من جراء عودتها الى هنا. فخلال غيابها عن لندن، لم يكن صعباً عليها ان تنسى موت امها المأساوي، اما الآن، فالذكرى عادت تلاحقها، وتجعلها تتردد في دخول الشقة. لكن كيف يمكنها ان تشرح له كل هذا، وبخاصة ان وجود كارلوت معهما لا يتيح له التأخر، فضلا عن أن ايجادها للكلمات

المناسبة قد يكون مستحيلا.

كذلك شعرت فجأة انه غريب عنها. فلأول مرة منذ عرفته، كان استبدل تنورته ببدلة كحلية، بدا فيها جذاباً جداً ولكن بطريقة أخرى مختلفة، وحيث تغيير الزي أضفى عليه اناقة عصرية محيرة. اجل، كان واضحاً انه رجل عالم بأحوال الناس والحياة، ودونما حاجة لأن يؤكد شعره الأنيق ووجهه الحليق هذه الحقيقة.

قطّب قليلاً وهي تقف تنتظر ذهابه، وقال:

«لا تنسي انك ستنزلين الليلة في الفندق الذي زودتك باسمه وعنوانه. قد أتعشى في مكان آخر، لكني سأمرّ بعد ذلك على الفندق لأتأكد من وصولك».

أومأت سو بصمت، وتابعته بنظرها وهو يرحل في التاكسي وعلى شفتيها ابتسامة ثابتة. كانت متأكدة من انه سيمضي السهرة مع كارلوت، مع انها لم تقل له هذا، كذلك لم تظهر كارلوت استعجالها للذهاب الى «كنت» حيث تقطن امها! انتابها يأس شديد وهي تغلق باب الشقة خلفها.

خلال الساعة التالية، حاولت بقنوط ان تستعيد مشاعرها القديمة تجاه الشقة لكنها بدت غريبة عنها فأحست بالعجز عن ربط نفسها بهذا المكان الذي قضت فيه قسماً كبيراً من حياتها. لقد تجولت بلا هدف من غرفة الى أخرى ولم تقدر ان تتعرف في أي منها الى الحقيقة. لدى دخولها اعتراها الخوف لكنه زال في سرعة وزال معه كل شعور بالوحشة لغياب امها. كذلك في غلينرودن، تضاءل حزنها سريعاً، وعزت ذلك الى تغيير الجو والمكان. أجل، كادت تنساها تماماً وكأنها لم تعش معها ابداً. وكالعادة، اخذت سو تبحث عن نقص في تصرفاتها وخلقها قد يبرر قساوة قلبها الواضحة.

كفت في الأخير عن تحليل ردود فعلها وباشرت مهمتها. كانت الغرف صغيرة، لكن بعد ان تفحصت الأثاث وجدته مريحاً وذا نوعية ممتازة. كل ذلك كان بفضل النفقة الشهرية التي كان أبوها يرسلها بانتظام وكرم. أحست بمرارة وتمنت لو انها وعت من قبل هذه الحقيقة، كذلك احست بخسارة بيع الأثاث بسعر بسيط. جمعت أغراضها الخاصة ووضبتها في حقائب، ثم قررت ان تخابر تيم وتسأله اذا كان يرغب في قطعة معينة من

الأثاث لتهديه اياها، ولتشكره ايضا على كل مواقفه الطيبة ازاءها. لكنها تذكرت فجأة ان التلفون والكهرباء كانا قد قطعا في اثناء غيابها، وفضلت ان ترجىء مخابرته لحين موعد الغداء بدل ان تذهب الآن الى الكشك في نهاية الشارع.

ابتهج تيم لدى سماعه صوتها، وأصر فوراً على دعوتها الى الغداء. وحالما جلسا متقابلين، قال لها معاتباً:

«كان يجب ان تعلميني بأنك آتية. كنت انتظر يومياً ان أطّلع على تفاصيل مغامرتك العظيمة وفجأة أجدك هنا! منذ مدة وأنا أحاول الحصول على اجازة اضافية. كان من الممكن ان أذهب انا من طريق وتأتين انت من طريق أخرى. فلا نرى بعضنا!».

لقد أتى بها الى المطعم ذاته الذي تناولا فيه الغداء في ذلك اليوم الحار قبل ان تقابل محامي امها. آنذاك طلب اليها الزواج فرفضت، او بالأحرى، حاولت ان تتذكر بصدق موجع، انها ماطلت في الجواب لأنها لم تتحمس للفكرة. من الغريب ان تنسى حادثة مهمة كهذه. اما في هذه اللحظة. فتشعر فقط بالقلق لأنه حاول اللحاق بها الى غلينرودن، ولذا اجابته قائلة:

«لا احبذ ذهابك الى هناك. ليس الآن على الأقل».

انشغل بطلب الطعام، لكن نظرتها السريعة اليه اخبرتها ان جوابها مس احساسه. لا داعي لأن تغوص في اعماقه كي تقرأ وجهه ككتاب. أجابها وهو يزم شفتيه:

«ذهابي أعتقده ضرورياً لأدرس الأمور بنفسي. فالرجل الثري المريض بالقلب يحتاج الى معاملة دقيقة، وبالتالي، يجب ان يكون الى جوارك شخص يرعى مصالحك».

«لم أقل ابداً انه رجل ثري يا تيم».

بدأت تقول رداً على عبارته الموحية بميوله المادية، لكنها استدركت قائلة:

«اقصد... ربما هو ميسور الى حد الثراء لكني لا اعرف أية تفاصيل عن مدى ثرائه».

«اني على حق اذن! لقد خدعوك بسهولة، يا عزيزتي سو. ذلك المدير

الذي تتحدثين عنه، يبدو من النوع الجدير بالمراقبة في ضوء الظروف التي وصفتها».

«لكني لم أصف أي شيء يا تيم! انك تؤلف هذا بنفسك. أطلعتك فقط على الوقائع العارية. ابي رجل مريض وأنا لم أحاول التجسس».

«اذن كان يجب ان تفعلي يا حبيبتي، حفاظاً على مصالحك. أنا أبغي افادتك من خلال خبرتي. لقد اعتدت القراءة ما بين السطور حتى اصبحت جزءاً من مهنتي».

«أرجوك».

«تقولين انك ستخلين الشقة وستتركين لندن نهائياً. فما عساي ان افكر، أو أفعل؟».

تأملته في أسى وأجابت:

«قبل ذهابي الى اسكتلندا قلت بنفسك اني قد أجد قريباً مسناً في حاجة الى الرعاية والاهتمام، وقد صدق كلامك. لكن أبي اصيب بالمرض قبل وصولي بزمن طويل، واعتقد انه في حاجة كبيرة الى وجودي. انا عازمة على البقاء معه ما دام يريدني هو ان أبقى. لقد احببت غلينرودن على رغم مني، أما مسألة اخلاء الشقة، فالواقعية تفرض عليّ ذلك، واخلاؤها لا يعني اني لن أعود الى لندن في يوم ما».

«استبعد جداً ان تعودي. فهذا المدير...».

فقاطعته بحدة:

«ليتك تتوقف عن مهاجمته! انه يقوم بعمل رائع، ولا أعتقد انه يطمع في أملاك ابي. وفي الواقع، جاء معي اليوم الى هنا».

«يا الهي!».

أزاح طبقه وكأنه فقد شهيته في الطعام وأضاف:

«أترين اني صادق في اتهامي؟ من الواضح انه لا يحتمل ابتعادك عن بصره، وربما يعتقد انه سيستولي عليك مع الأملاك عندما يموت الرجل العجوز».

حملقت فيه وكأنه صفعها، ثم قالت في برود:

«لا يحق لك ان تقول أشياء كهذه. لك ان تفكر فيها اذا شئت، انما أرجوك ان تحتفظ بهذه الآراء لنفسك. لقد فسرت لك الوضع بكامله، واذا

كان صعباً عليك ان تتقبله . . .».
فهز كتفيه وقال:
«أعرف ذلك تماماً، وأعرف اني أضيع فرصي بغبائي».
أحس بالندم، فانحنى صوبها عبر الطاولة، آخذاً يدها في يده، وقال بنظرة تتوسل الغفران:
«ما فكرت الا في مصلحتك يا سو، فأنت لا تجهلين حبي لك منذ زمن طويل».
خبر جديد بالنسبة اليها، الا انها لم تقل شيئاً. صحيح انه عرض عليها الزواج لكنها عزت السبب جزئياً الى رغبته في ان يسكن شقة مريحة، ولطالما أبدى اعجابه ببيتها الجذاب، وربما كان منجذباً ايضا الى زوجة ذات دخل خاص وأهلية ثقافية تتيح لها عملا ذا راتب جيد. اضافة الى ذلك، ألم يلمح له رئيسه مراراً، بأن الزوجة المناسبة تزود الرجل بالثبات المطلوب لترقيته في عمله؟
ومرة أخرى، شعرت بالخوف حين قال في نعومة:
«اذا كنت سترثين أملاكاً جبلية، او اي نوع آخر من الأملاك، ستحتاجين الى شخص يرعى مصالحك، وهذا المدير. . .».
«ميريك فيندلي لا يهتم بي شخصياً اذا كان هذا مقصدك».
«أتتوقعين مني ان أصدق ذلك؟».
«لم نأت بمفردنا. جاءت معنا فتاة يعزها ميريك كثيراً».
«أوه. فهمت».
تراخت اعصابه المشدودة، ولاحت على شفتيه ابتسامة ذات مغزى، وقال:
«هذا أفضل، فأنت تعرفين مغبة تقارب، كهذا يتطلب يقظة شديدة، وما كنت أبداً فتاة مجربة في هذه الأمور».
قطع كلامه ونظر الى ساعته وقال:
«الوقت داهمني يا سو، يجب ان أذهب فوراً. سأمر عليك مساء لنتعشى في مكان ما. من المؤسف انك لم تعلميني بعودتك. لقد أحرجت موقفي بالنسبة الى ضيق وقتي».
تجاهلت تأنيبه وقالت:

«لا بأس يا تيم. لا تنس انك وعدت بالقاء نظرة على الأثاث».
«سأفعل. احب في الواقع ان أسكن مكانك في الشقة لأنها أكثر راحة من شقتي، لكن عقدك لا يسمح لك بتأجيرها بالبدل نفسه، وكمستأجر جديد، اخشى ان يطلب المالك بدلا مرتفعاً لا أقوى عليه في الوقت الحاضر».
ذهب تيم، يفكر دائرياً، قالت سو لنفسها وهو يخرج من المطعم، انه يحور ويدور ويرجع للتركيز على نفسه. على كل، يبقى صديقاً تعرفه، ولأول مرة شعرت بأنها وحيدة في لندن، وودت لو انهما قضيا العصر معاً. لكن ما يزال لديها عمل كثير. . . لقد حزمت معظم الأشياء التي قررت الاحتفاظ بها، وميريك سيرتب مسألة نقلها في القطار، لكن هناك بعض الأغراض الصغيرة، كالكتب والأواني العتيقة التي لن يشتريها احد. ربما تأخذها للرجل العجوز في كوين ستريت كي يتصرف بها ما دام يملك حانوتاً لبيع وشراء الأغراض المستعملة. خابرته فوافق على شرائها ووعد ان يذهب بعد ساعة لتسلم الأغراض. شكرته وتابعت سيرها الى الشقة. من الضروري ان تفرغها اليوم لتسلم المفتاح غداً الى المحامي، وقد يغطي سعر الأثاث أجرته.
عند احدى الزوايا، توقفت مبهورة امام متجر صغير كان يعرض قميص نوم من الشيفون مع روب مماثل لونها وردي رائع. حدقت اليها مأخوذة، وتخيلتها ينسجمان في جمال مع شعرها الأشقر وعينيها الرماديتين. انها لا تملك ثياب نوم كثيرة، فعدا قميص من النايلون ارتدته طوال الصيف، كانت ترتدي عادة بيجامات صبيانية، تبتاعها امها رخيصة في مواسم التصفيات. كان يريح سو ان ترتديها، لكن هذا القميص في الواجهة من نوع خاص. ليس عرائسياً تماماً انما حلو جداً.
دخلت المتجر تسأل عن سعره وتفاجأت بارتفاعه. سارعت البائعة وانزلته من الواجهة وقالت لسو بحماسة:
«انه جميل حقاً يا سيدتي. أنظري التخريم الفضي الدقيق حول الخصر. لقد صنع خصيصاً لفتاة جميلة القوام مثلك».
حساباتها اوحت اليها بعدم الشراء لكن ملمس القماش الناعم جعلها توافق على ابتياعه. . . بعد ان تدفع ثمنه يبقى لديها مبلغ يكفي فقط لشراء

سروال.
تناولت الرزمة من البائعة وهرولت خارجة قبل ان تغريها نفسها على شراء شيء آخر. قد لا يكون قميص النوم واقعياً بالنسبة الى الشتاء الاسكتلندي، الا انها، في هذه اللحظة الفرحة، لم تأبه لشيء على الاطلاق.

احستْ بالتعب قبل ان يمر عليها تيم بساعات. عادت واياه الى الفندق، وتركته يشرب قهوة في قاعة الجلوس وصعدت لتستحم وتبدل ثيابها. وعندما اقترح ان يتناولا العشاء في مطعم الفندق الفخم، وافقت في سرور، لكن دعوته في ما بعد الى السهرة ازعجتها، انما نظرة الخيبة في عينيه اضطرتها للقبول.

رجعا بعد منتصف الليل، وبرغم تعبها الشديد لم يؤسفها التأخر. فالنادي الليلي كان مفعماً بالحيوية والمرح مما ازال الكثير من توتراتها السابقة، فضلاً عن ان تيم كان رفيقاً مبهجاً ذكرها بتصرفاته الدمثة القديمة. وحين ودعها خارج الفندق شعرت نحوه بتعاطف لم تشعره طوال ذلك النهار. كان في صباح الغد سيذهب مع رئيسه الى ديفون في مهمة تتعلق بتخمين الضرائب ولذا لن تراه ثانية قبل ان تغادر لندن. قال لها وهو يودعها:
«لا تنسي ان تكتبي لي وتخابريني والا قلقت عليك يا سو».
تنهدت بما يشبه الارتياح وصعدت الى غرفتها بعدما اخذت مفتاحها من موظف الاستقبال. وما ان اغلقت على نفسها الباب حتى شعرت بالارهاق يرنحها ولم تشته الا النوم الفوري. كان لا بد من الاغتسال فاستحمت بسرعة، وانعشها الماء الدافىء قليلاً، فارتدت قميص نومها الجديد.
صعدت اخيراً الى الفراش، ولم تكد تلقي رأسها على الوسادة حتى طرق الباب. خفق قلبها بقلق، وانتظرت قليلاً لكن الطرقات عادت فنهضت مستاءة، وسارت متعثرة دون ان تشعل النور.
فتحت الباب بعنف وفوجئت برؤية ميريك واقفاً في الممر. لقد تعمدت طوال النهار ان لا تفكر فيه ونجحت. حتى عندما تهجم عليه تيم رفضت ان تركز عليه اكثر من الدقيقة التي استغرقتها لتدافع عنه. تذكرت الآن انه وعد بالمرور على الفندق ليتأكد من وجودها هناك وقد نسيت ذلك لسوء الحظ.

قالت في اندهاش، قبل ان يتكلم:
«اذا انتظرت قليلاً، سأضيء النور وارتدي روبي».
فرد متهكماً:
«اختاري الذي يعجبك. لن يضيرني الانتظار بضع دقائق بعد الوقت الطويل الذي صرفته اذرع ارض هذا الطابق والطابقين الاعليين، هذا ان لم اذكر اهتراء حذائي».
كان يرتكز الى مقبض الباب، باسترخاء وعفوية، لكن صوته كان مزنراً بالتهكم.
القت عليه نظرة واحدة ثم هربت. راحت اصابعها تبحث عن زر الكهرباء. وبيدها الاخرى التقطت روبها من على السرير. اضاء مصباح السرير الغرفة بنور خافت وكاف في الوقت نفسه. احست فجأة بشفافية الروب الوردي، فحضنت كتفيها وصدرها بذراعيها واستدارت صوب الباب لترى ميريك يدلف منه قائلاً:
«دخلت لامنعك من المبادرة الى تمشيط شعرك او الى اي شيء اخر تفعله النساء حين يواجهن رجلاً لم يتوقعن قدومه». واضاف مغمغماً: «حتى لو كان رجلاً ينفرن منه».
اثارها غروره كما في مرة سابقة واجابت غاضبة:
«لم افعل اكثر من الضروري، كما ترى».
«الذي اراه يعجبني ويسرني لأن انتظاري لم يذهب عبثاً».
«هل جئت قبلاً الى هنا؟».
«لا تقولي انك نسيت؟».
«قلت انك ستتأكد من وجودي هنا».
«وهذا ما كنت افعله طوال الساعة الماضية. لم يخطر لي انك ستتأخرين الى هذا الحد».
«قضيت السهرة مع تيم ماسون».
«هذا ما حسبته تماماً، كذلك خطر لي ان لك اصدقاء آخرين ولا ريب، وتساءلت عما اذا كنت اعلمتهم بقدومك؟».
حاولت استيعاب عبارته وتحليلها، فاتسعت حدقتاها، وهمست من حلق متقلص:

«ما كان في وسعي ان افعل هذا، ولم افكر باقامة حفلة».

هز كتفيه وابتعد قليلاً عنها فيما راح ظله يتراقص على الجدار. ودت متأخرة لو انها اضاءت نور السقف لأن ضوء المصباح الخافت كان حميماً اكثر من اللزوم. راقبته مرتبكة وهو يستدير في هدوء ويواجهها. رفعت رأسها تتهيأ لهجومه، فضحك وقال:

«اذن، ركّزت على رجل واحد، على تيم، موظف الضرائب! فما رأي حضرته بقضية الشقة؟ هل وافقك على اخلائها يا ترى؟».

كان في ذقنه غمازة، محفورة في عمق تحت شفتيه، فحدقت اليها سوكي تهرب من سخرية عينيه المشتعلتين. اخذت نفساً طويلاً، وحاولت ان تبادله ذلاقته الهازئة نفسها وهي تقول:

«قد تنبت لي مشكلة ضرائبية فاستعين به، وهو، على فكرة، خدوم جداً. ثانياً، انه لا يحبذ كثيراً فكرة رحيلي، الا انه لم يعارضها. هل تقنعك هذه الأجوبة؟».

«ليس تماماً، لكن بما اني لا اعرف صديقك شخصياً فلا اعرف كذلك كيف يشغل عقله».

اذا كان بالفعل لا يعرف تيم شخصياً، فكيف درى انه يعمل في مصلحة الضرائب الداخلية؟ لا جدوى من سؤاله، لأنها ستلقى جواباً مراوغاً على الارجح. ثم ان رجلا كميريك فيندلي يهمه جداً كل شيء من شأنه ان يمسه ولو بطريق غير مباشر، ولا ريب ان فترة وجودها في غلينرودن زودته بعذر كي يراقبها في شمول ودقة.

اجابته مغمغمة ودونما اكتراث:

«اذا كنت قد حذفت اية معلومات ضرورية، فانا اكيدة من انك ستعوض هذا النقص».

ودونما اكتراث ايضاً، القى يديه على كتفيها، ليؤكد وجهة نظره حين قال:

«من الأفضل ان تقرري نهائياً، ان الرجال اشباه تيم ماسون، لا وزن لهم في المجتمع. ليس بما يتعلق بك بالذات. . . يجب ان تودعيه غداً وتبدأي حياة جديدة. ان قطع علاقتك به نهائياً هو طريقك الوحيد».

اجتاحها ضعف مروع حين لامست يداه كتفيها، وتململت قلقة، وهي

تحاول طرد مشاعرها والتركيز على كلامه. غلينرودن مهمة جداً بالنسبة الى ميريك وقد يفعل اي شيء من اجل حمايتها. انه يرعى تلك الاملاك كطفل صغير ويخشى عليها من النسيم العابر. لكن، الا يرى انه يؤذي الآخرين بهذا التصرف؟ هتفت والنار تسري فيها وتقلص عضلاتها:

«لا يمكنك ان تحكم على كل شيء تبعاً لقواعد ثابتة، بل يجب ان تتيح المجال للعنصر الانساني».

«العنصر المتمثل فيك؟».

«هناك معزّة مشتركة بيني وبين تيم، ولا يسعني ان اكون عديمة الرأفة مثلك».

فقال بنظرة هازئة وحذرة:

«لا تبدين لي كفتاة يطير بها الحب عالياً، لكن، قد تسعدين اكثر اذا ثبت قدميك على الأرض».

التحمت نظراتهما بغضب واجابت:

«لا شأن لك بحياتي العاطفية يا ميريك فيندلي!».

«اتعتقدين ذلك حقاً؟ اني اذكر مناسبة معينة بدوت فيها منسجمة عاطفياً بين ذراعي. اخبريني، هل تقولين لتيم، ارجوك، بعد ان يعانقك؟».

انتاب كليهما توتر براق، كهرب الهواء في ما بينهما، فأطلقت نفساً مسموعاً عبر شفتيها الورديتين المنفرجتين، ثم قالت في شبه هذيان:

«اني متعبة وفي حاجة الى النوم».

فأضاءت وجهه ابتسامة متألقة، وقال متأملاً قوامها الرائع:

«هل اعتبر ذلك دعوة لي؟».

كانت اصابعه تحرقان كتفيها من خلال القميص الرقيق، فيلتهب دمها بحمى لم تعرفها ابداً من قبل. ارجفتها صدمة الاكتشاف، فلجأت الى الكلمات لتضبط ارتجافها:

«لماذا تجد لذة في تحوير معاني كلماتي؟ لا ادري سبب مجيئك الليلة، لكني واثقة من انك لم تأت بسبب انجذابك الي».

«انك لساحرة يا آنسة فريزر، فلا تستهويني بما لديك من مفاتن ولا بقدرتك على الاستمتاع بمباهج الحياة الحسية. لا تقولي ان تيم لم يعانقك

مودعاً؟».

في الواقع حاول تيم ذلك لكنها لم تكن في وارد العناق. هذا على الأقل، ما قالته لنفسها وهي تبعده عنها متذرعة بالتعب. وبالطبع، لن تعترف لميريك بذلك! ساءها ان يسأل، فلاذت بالصمت، الى ان تحركت يداه على ذراعيها، فعادت المشاعر السابقة تنسيها كل شيء.

قرأ افكارها وقال:

«اذن تشعرين بالحرمان. ربما تودين ان اعوض انا عن تقصيره؟».

شد ذراعيه حولها الى درجة الايلام، ثم طبع على جبينها قبلة خاطفة وقاسية، وكأنه يعاقبها على اعتراضاتها السابقة، وافلتها وهو يقول بصوت متوتر:

«هذا يثبت وجهة نظري بانك لست قطعة ثلج كما تتظاهرين».

ابتعد عنها فجلست متهاوية على حافة السرير. كل ما يزعمه ليس صحيحاً، وحتى لو كان فيه شيء من الصحة، فلا يحق له ان يعرض آراءه بهذه الطريقة.

تحول تضرج وجهها الى شحوب وخفق قلبها وهي تحدق اليه. حاولت جاهدة ان تجمع شتات ذهنها الذي تاه منها في تلك اللحظات المجنونة بين ذراعيه. وسمعته يقول هامساً:

«لو انك تعقلت وعدت باكراً لما كان حصل شيء من هذا».

«اذن انا الملومة؟».

«اسمعي يا سو، لست مستعداً للدخول في جدل. لأحدد المسؤول عما حدث». وهنا ابتسم قليلاً واضاف: «قد نضع اللوم على الشخص الذي باعك هذا اللباس الليلي المغري».

افقدها كلامه انضباطها، فقالت كاذبة:

«أتعتقد اني ابتعته خصيصاً؟ لقد غسلته عدة مرات لغاية الآن».

تألق وجهه بتلذذ، وقال وهو يتقدم نحوها فجأة:

«انك تكذبين، الا اذا كان لدينا بطاقات اسعار قابلة للغسيل!».

وبسرعة، مد يده واقتلع بطاقة صغيرة من بين كشكش الياقة ليريها اياها.

انحشر الهواء في حلقها ففقدت صوتها. لكنه لم يعطها فرصة للجواب،

وتناسى الحادثة بهزة كتف قصيرة قبل ان يضيف:

«اضطررت لرؤيتك هذه الليلة يا سو لاني سانشغل غداً بموعد مهم وسأذهب الى المطار فور انتهاء الاجتماع. لقد رتبت كل شيء هنا، وغداً بعد الظهر سيمر عليك سائق التاكسي ليأخذك الى المطار. لم اعرف كيف سارت امورك، وخشيت ان تكوني صادفت بعض المشاكل فجئت لاطمئن الى احوالك».

سار الى الباب، وادار مقبضه وهو ينظر اليها. تمنت لو يمضي بسرعة، متجاهلة مشاعرها الجياشة التي كانت تتمنى بقاءه بدورها. تمالكت نفسها في صعوبة، وقالت:

«في الصباح لدي موعد مع محامي والدي، وحيث سأوقع بعض الأوراق. سأسلمه مفتاح الشقة، وسيهتم بأمر الاخلاء وغيره. لقد حزمت اغراضي الخاصة كما اشرت عليّ...».

وغاب صوتها اذ لم تجد شيئاً اخر تقوله.

«حسناً، غداً نلتقي في المطار اذن... يؤسفني ان يضيق وقتي بهذا الشكل، وربما في رحلة اخرى، نرى بعضنا اكثر».

ارتعشت حين اختفى بسرعة، وظلت لدقيقة تحدق الى الباب المغلق... لو ان ما رأته كان حلماً، فاستيقاظها كان فجائياً قاسياً، لا قبل لها باحتماله. قفزت واقفة فتهاوى شعرها على وجنتيها. سارعت الى حقيبة ثيابها والقت بمحتوياتها على الأرض، ثم نزعت القميص والروب باصابع مرتجفة، وارتدت بيجامتها القديمة. كانت قصيرة قليلاً وصبيانية لكنها شعرت فيها بالعودة الى شخصيتها المتزنة السابقة.

اندست بين الاغطية وهي تحس تعاسة غريبة. غداً صباحاً تضع قميص النوم في سلة المهملات او تقدمه هدية الى عاملة الفندق ذات الابتسامة الحلوة. لن تأسف كثيراً على ضياع ثمنه ولن تقلق على مصيره، فقط لا تريد ان تراه مرة اخرى!

٧ - غابة بدون اشجار!

لدى عودتها الى ادنبرة، حاولت سو اعتبار الحادثة كمجرد خدعة لعبها الليل على مشاعرها الحساسة جداً. فميريك فيندلي ليس من النوع الذي ينغمس في مغامرات عابرة كهذه، وشخصيته تعزز هذه التبرئة، ولكن حياة مطلق رجل لا تخلو من بعض لحظات التهور. لقد كان متعباً مثلها على الارجح، والذي حصل لم يحدث عن تعمد او تنفيذاً لخطة مرسومة. هذا التحليل، برغم دنيويته، اراحها مؤقتاً، فتعلقت به تعلق الغريق بخشبة.

وصلا مطار تيرنهاوس قبيل الغروب، واصر ميريك على ان يتناولا الشاي قبل مواصلة السفر الى غلينرودن، وشرح السبب بقوله:

«انها مسافة بعيدة وانا لا احب التوقف على الطريق».

استرقت اليه النظر وهما يدخلان ادنبره ولم تعلق. لقد استمتعت بالرحلة الجوية اكثر من المرة الماضية. فكارلوت لم ترجع معهما، وميريك جلس الى جوارها، يعرفها الى المعالم المختلفة التي لم تستطع معرفة اسماءها في المرة السابقة. اجاب على كل اسئلتها بمهارة المسافر الخبير.

ومع انها لم تر ميريك كثيراً في لندن، الا ان اشرافه الدقيق على شؤونها كان واضحاً.

فتنظيمه الصارم، واصراره على توضيب كل غرض يتعلق بحياتها السكنية في كنغستون، ومن ثم الشحن والبيع والتصريف، كل ذلك تم في وقت قصير، وكأنما بقيادة محرك لاسلكي. لم يخطر لها مطلقاً ان تعارض سلطته او تناقشه لكونه تخطى صلاحياته واتخذ عنها معظم القرارات. كانت تحافظ دائماً على استقلاليتها، ولذا احست بشيء من القلق، بشعور

مسبق بأنه قد يسيطر عليها اكثر اذا لم تأخذ الاحتياط الكافي في المستقبل.

تنهدت وغمغمت بتأثر:

«ما احلى العودة الى الوطن. اسكتلندا حققت كل احلامي بها. ما غبت عنها يومين حتى افتقدتها».

استدار اليها قليلاً وقال:

«الاحلام خطرة احياناً».

ما به؟ هل تعرقلت اعماله في لندن؟ وسألته:

«هل ساءك ان اعود معك هكذا؟».

«ولماذا استاء؟ لك مطلق الحق في العودة، والدك يحتاج اليك».

وودت لو تضيف: «لكنك لا تحتاجني». تذكرت في اسى، مواقفهما العاطفية، وانتقلت الى صداقته لكارلوت. هل يعقل انه يلهو بهما معاً ولبينما يتضح له من منهما سترث غلينرودن؟ هل سيجد صعوبة في الاختيار؟ قد يعيش جون لسنوات طويلة، وربما لا يعيش. اخافتها افكارها فحاولت الا تغوص في المستقبل. انها لم تحب امها ابداً في عمق ومع ذلك تفتقدها احياناً، وابوها كذلك، تخاف ان تفقده بعدما عثرت عليه. ما نفع ان نحب الناس اذا كان القدر سيختطفهم فجأة مخلفين وراءهم فراغاً مؤلماً؟ حتى اهتمامها المتزايد بميريك فيندلي قد يكون دعوة الى العذاب.

ادارت بصرها وحدقت الى المتاجر وجموع الناس على الارصفة. لماذا تسمح للحظات عناق قصيرة وخفقات قلبها المجنونة ان تسبب لها كل هذا التمزق؟ ميريك يجب ان يبحث عن التسلية في مكان اخر، وهي يجب ان تتعلم كيف تقسي قلبها.

اوقف ميريك السيارة امام احد الفنادق، وقال وهما يهبطان منها:

«للعاصمة مظهر دراماتيكي مؤثر، الا تعتقدين هذا؟».

التفت اليها، ولم يبد عليه اي انزعاج من صمتها المفاجىء.

تطلعت الى فوق، فوقع بصرها على خيال القلعة الصخرية المشيدة منذ الف عام، وعلى ظلال ادنبره القديمة الواقعة خلف حدائق برنسيس ستريت. كان مشهداً رائعاً يسحر النظر.

وقال ميريك:

«عندما نستغني عنك ليومين، يمكنك ان تقضيهما هنا لتتعرفي جيداً الى

ادنبره».
ابتسم قليلاً وقادها عبر الشارع نحو الفندق، ويده تحتضن خصرها وقال:
«خسارة اننا لن نبقى هنا وقتاً اطول، انما من الافضل ان نتابع السفر».
العودة الى البيت لم تستغرق وقتا طويلاً، او هكذا خيل الى سو لما تذكرت سفرتها الأولى الموحشة في اغسطس/ آب. معظم الطريق بدا ميريك منشغلاً بافكاره، فوجدت نفسها تغفو بين حين واخر. وقبيل وصولهم نفضت عنها ذيول التعب والنعاس لتسأله عن موعد عودة كارلوت. فأجابها في اختصار:
«نسيت ان اسألها وهي لم تخبرني. انك ستعيشين بدونها لبضعة ايام. فلا تخافي».
«لا داعي لتهكمك. حسبتك ستتساءل لماذا لم اسألك».
«لم اتساءل، وهي لا تتغيب عادة لوقت طويل».
هز كتفيه بحركة لا مبالية واختلس اليها النظر من طرف عينه. كلاهما كان شاعراً بوجود الآخر انما لم يرغب في الكلام. هذا التوتر احزن سو وحيرها، فاستدارت تتأمل القفار عبر النافذة، وبقايا المطر تغمرها بالرطوبة والوجوم. احست بوحدة الطبيعة تلمسها وتشعرها بالراحة وسط اسوداد الغروب. لا جدوى من الافكار بأن ميريك لا يريدها وكذلك كارلوت. لكن غلينرودن اصبحت بيتها ووطنها ولن تغادرها مهما واجهت من منافسة.
الآن، وقد قصرت النهارات، قررت السيدة لينوكس ان تنام ايضاً في البيت طيلة فصل الشتاء. الدكتور ماكروبرتس لم يكن مطمئناً الى صحة جون الذي كان يهزل يوماً بعد يوم، فعرضت الممرضة ان تقدم مزيداً من المساعدة، فضلاً عن ان الطريق بين غلينرودن والقرية، كانت تنقطع احياناً في الشتاء لدى فيضان النهر، فخشيت السيدة لينوكس ان تحتجز في القرية لأيام متتالية بسبب ذلك.
شعرت سو بالامتنان لهذا الترتيب الجديد، انما كان على الممرضة ان تنظم امورها في القرية استعداداً للبقاء في غلينرودن، فساهمت سو في اعمال اضافية في البيت، كذلك استمرت تساعد اباها في الكتاب.

وعلقت السيدة لينوكس على ذلك بقولها:
«احياناً اتساءل يا عزيزتي، من الذي يؤلف الكتاب، هو ام انت؟ فلولاك ما استطاع ان يكتبه ابداً».
«هذا العمل يشغل ذهني ويبعده عن التفكير في امور اخرى».
اجابتها سو بابتسامة غامضة. وبالرغم من نظرة المرأة المتسائلة، لم توضح ان «الاشياء الاخرى» تعني بمعظمها ميريك فيندلي.
فعلى الرغم من وجهة نظرها الخاصة بانه مغامر جريء يسعى الى تأمين مصالحه المستقبلية، استمر ميريك يعذب قلبها. والى جانب شعور الاحتقار، كان يثير فيها احاسيس اخرى هي في غنى عنها. كانت كلما رأته، تتذكر في خجل مذنب، انها حين قابلت المحامي في لندن، كانت على وشك ان تأخذ رأيه في اجراء تحرٍ قانوني عن اوضاع ميريك وبطريقة لا تثير الشكوك. لكنها لسبب ما، وجدت نفسها عاجزة عن عرض شكوكها ومخاوفها امام المنطق القانوني الصارم. بل ان مجرد فتح الموضوع بدا لها تصرفاً وقحاً آنذاك، اما الآن، وبعد ان عادت الى غلينرودن، فقد انبت نفسها على غبائها لان الفرصة قد لا تسنح ثانية. من جهة اخرى، لم تكن لديها اية فكرة عن مغبات اجراء كهذا، وخافت من النتائج التي قد تثبت خطأ ظنونها. لم تكن لتبرىء ميريك من كل شيء، الى جانب سعيه الطبيعي الى تأمين مستقبله مادياً، لكنه قد يرحل عن غلينرودن اذا اقدمت على شيء بلا مبرر منطقي، وطعنته في الصميم.
ومرت الأيام، واستمر ميريك يشرف على رحلات الصيد، لكن متنزه العربات كان سيقفل ابوابه مع انتهاء الموسم في اواخر اكتوبر/ تشرين الأول، او هكذا اخبرتها كارلوت لما عادت من لندن. قالت:
«قررنا للعام المقبل ان نستصلح بضعة دونمات اخرى قرب الخليج بموجب رخصة بالطبع. واذا حصلنا عليها، فقد اقضي الصيف المقبل في غلينرودن. فميريك، على ما يبدو، لا يمكنه الاستغناء عن خدماتي. لن تكوني هنا على الارجح، لكن احسبك تودين معرفة ذلك».
كان في وسع سو ان تجيب بانها لا تود ان تعرف، وبأنها لم تستسغ مذاق الخبر، انما كان من المحتمل جداً ان تترك غلينرودن، على الرغم من كل ما قد يحدث، لذا بقيت صامتة، تستمع في تهذيب الى ثرثرة كارلوت،

محاولة ان تعطي الانطباع بانها لا تكترث اطلاقاً لما سيحدث في السنة المقبلة في هذا الجزء من العالم!

اخبرتها كارلوت كذلك، ان ميريك دعاها للعشاء خارجاً، مما زاد من مرارة سو لكونه لم يفكر مرة بدعوتها، بل كان يتعمد الابتعاد عن طريقها.

وفي الأخير، ذكرت كارلوت ان مدرسة قرب بيتها قد تطلب معلمة شابة للعمل عندها بعد عيد الميلاد، فتشبثت سو بالفكرة، وطلبت الى الفتاة ان تتأكد من الأمر وتعلمها به فوراً.

وفي احد الأيام، قرب نهاية الشهر، اصطحبها ميريك في الجولة الموعودة. فقد فاجأها في احدى الامسيات بتجديد دعوته، وقبلتها في سرور برغم انها كانت عازمة تقريباً على رفضها.

كان صباحاً صافياً برغم هبوب الريح، وكان ميريك قد نبهها الى وجوب ارتداء ثياب دافئة، بقوله:

«الدروب وعرة والطقس متقلب، فلا تتمسكي بالموضة وتلبسي تنورة وبلوزة رقيقة. اذا فعلت ذلك سأعيدك الى غرفتك لترتدي المطلوب».

كان في نبرته تهديد خفيف جعلها تهرع الى خزانتها وتختار سروالاً سميكاً وقميصاً دافئاً وكنزة وقبعة صوفيتين.

السيدة لينوكس شاركت بدورها في العمل على انجاح الرحلة، فهيأت ساندويشات وضعتها في حقيبة ظهر خفيفة، اعطتها لسو متمنية لها رحلة ممتعة.

ابتسمت سو وهي تركض الى حيث كان ميريك يجلس في سيارته، وحالما صعدت الى جانبه ادار المحرك بفروغ صبر وانطلقا.

نظر اليها وقال باسماً:

«تبدين متألقة هذا الصباح».

«لقد نفذت تعليماتك بحذافيرها كما ترى. انا مستعدة لكل شيء، تطبيقاً لكلماتك».

«ربما ما طلبت هذا بالضبط، لكن طالما نحن ذاهبان في مطاردة، فالثياب الثقيلة انسب».

فقفز بصرها الى وجهه الاسمر وسألت في لهفة:

«مطاردة؟ اتقصد اننا سنطارد الغزلان الاوائل؟».

«جمع ايل هو ايائل يا بلهاء، وليس اوائل».

فبادلته الضحك وردت في جرأة:

«الشاطر حسن! هكذا كنا نسمي التلاميذ اللامعين في المدرسة».

فبادلها مزاحها بأقسى منه:

«عرفت نساء كن يطلقن علي اسماء الطف. انا اسمي ميريك، ولم اسمعه من فمك سوى مرة او اثنتين».

اشاحت بصرها صوب الجبال البعيدة واخذت نفساً عميقاً، ثم قالت في جدية: «عندما تتصرف ودياً تكون لطيفاً جداً، لكن هناك اوقاتاً تليق فقط بمناداتك «السيد فيندلي».

«بالنسبة الى خطاياي، يسرني ان اعرف باني اثير ردود فعل ايجابية في بعض الأحيان. الا توافقينني رأيي يا حلوتي سو بناء على تجاربنا السابقة؟».

«لنحصر حديثنا في موضوع الغزلان».

«اوه، الغزلان».

ثم ابتسم ساخراً واضاف:

«منذ ايام حواء، والمرأة استاذة في فن المراوغة. لكنك، في يوم ما، ستتعلمين شيئاً واحداً يا سو، وهو انك لن تستطيعي الهرب الى الأبد. لكن في الوقت الحاضر، لنتكلم فقط عن الغزلان، كما طلبت».

ازدادت توردا وخفق قلبها وهي تقول:

«حدثني عنها اذن».

فأجابها في ليونة، وهو ينعطف بالسيارة الى الطريق العام:

«اود ان اريك ايلا او اكثر، وقد ترين بعضاً من اناثها».

«هل سنراهم على اراضي غلينرودن؟».

وهنا تنبهت، واضافت في حذر:

«اقصد اني لا اعرف الكثير عن غلينرودن. هل هي املاك واسعة؟».

تشبثت بحافة المقعد في عصبية، وقد تعرقت يداها من الخوف. انها تكره الاقرار بجهلها، ومع ذلك، لا تجد غضاضة في قهر كبريائها، لتعرف المزيد عن هذا المكان الذي بدأت تحبه.

لكن ميريك لم يستغرب سؤالها وردّ قائلاً:

«الجواب نعم على كلا السؤالين. فغلنيرودن شاسعة تبعاً لبعض المقاييس. انما لا تخلطي بين الحجم والانتاج المادي. انها تضم غابة غزلان، مستنقعات تعيش فيها طيور القطا، والخليج الذي رأيته. اما في الأودية، فلدينا تلال ترعى فيها الأغنام وبعض حقول الحبوب والخضار والدرنية (كالبطاطا والفجل الخ). هذه الحقول هزيلة بعض الشيء ونعتني بتحسينها عاماً بعد عام، بيد ان الأرض ما تزال صخرية».

لم تقتنع تماماً، فقطبت حاجبيها وتساءلت:

«تقول ان الارباح ليست كبيرة، فلماذا، ما دامت الاملاك واسعة وكثيرة؟».

«لأن هذا النوع من الأراضي لا يتيح المجال لربح وفير. اعطيك مثلاً، اذا كانت لديك غابة غزلان، فهي تحتاج الى عناية مستمرة، لكنها تكلف مالاً كثيراً . . . غابتنا نحن، بدأت تدر ربحاً بعد ان تعاقدنا مع الفندق على استئجاره في موسم الصيد، احياناً يتم الصيد وفقاً للأصول، واحياناً يكون الموسم كارثة، وذلك حين لا يعرف الصيادون اي نوع من الغزلان يقتلون. في هذه الحالة، الجأ مع مسؤول الغابة الى الاشراف على كل شيء في ضوء خبرتنا ومعرفتنا بواقع الحال».

«اتقصد انك تدع الناس يقتلون الغزلان؟».

«ليس قبل ان نقوم بعملية الفرز».

«يعني انكم تقتلون قسماً منها! هذه قسوة!».

«يجب ان نقتل عدداً معيناً من الغزلان كل سنة، كي نضع حداً لتكاثر القطيع».

استغربت هذا المنطق المغاير للواقع، فحولها اراض هائلة، اميال واميال من التلال والوهاد الممتدة حتى حدود البصر وليس فيها من مخلوق. انها تتسع حتماً لمئات الغزلان!

تململت على مقعدها، وسألت:

«لماذا تمنعون تكاثر القطيع؟».

«لأن الغذاء محدود. غابتنا جبلية برية، وهذا يعني ان القطيع يجب حصره في اعداد معينة، والا ماتت الغزلان جوعاً لبينما يعود العشب الى النمو في الربيع».

«فهمت».

فكرت في قحل المرتفعات فبدا كلامه منطقياً، وهي لم يخطر لها ان تتساءل عن طعام تلك الحيوانات البرية.

كانا قد وصلا مقطع النهر على الطريق وحيث يتابع جريانه صوب الخليج. وبعد عبور المخاض اتجه ميريك بالسيارة يميناً وراح يصعد درباً ضيقاً محاذياً للنهر، ومتابعاً مجراه الصخري عبر غابة من اشجار البتولا.

«تمسكي جيداً!».

هتف ميريك حين تمايلت السيارة اثر نزلة سيئة، جعلت سو تميل بدورها وتصطدم بكتفه. ابتسم واسندها بذراعيه حتى استعادت توازنها، ثم قبض على المقود بكلتا يديه ليضبط الدواليب الدائرة على نفسها.

انكمشت سو في الزاوية، تحاول ابعاد مشاعرها عن ملمس عضلاته وصلابة قبضته. ففضلت ان تركز افكارها على موضوع الغزلان. ثم سألته:

«الا يمكنكم اطعامها اغذية اصطناعية، كما يفعل المزارعون مع البقر؟».

ارجأ الجواب حتى استقام الدرب امامها، فاسترخت يداه على المقود وقال:

«لنستعرض المشكلة من البداية. غابة الغزلان قد تبدو كبيرة على الخارطة، انما في الواقع هناك اماكن معينة فقط تصلح للمرعى، وبالتالي، لتغذية عدد معين من الغزلان. هذا العدد نعرفه واحداً واحداً ونعرف انه يأخذ كفايته من الزاد».

«الا تحتاجون الى اطعامها شيئاً اخر؟».

«اجل، نطعمها فاصوليا وبطاطا وملحاً يابساً، الا اننا لا نفعل ذلك الا في شتاء قارس جداً، لانه يكلف مالاً، ونحتاج الى مردود سنوي لنستطيع تزويدها بهذا الطعام سنوياً. لكن الغزلان تعلف نفسها عادة بشكل جيد».

«لماذا قلت «عادة»؟

«لانه ليس دائماً يكون الشتاء قاسياً ومثيراً للمشاكل، وحيث يتجمع الثلج عميقاً في الجوفيات العشبية التي تؤمن الغذاء للأيائل. وحين يتعمق

الثلج، يستغرق ذوبانه وقتاً طويلاً، وهنا تكمن فترة الخطر... في مرة كهذه، وجدنا الغزلان تموت من الجوع. كانت لشدة ضعفها لا تستطيع الهرب من درب العقبان اذا هاجمتها. كان جون معي آنذاك».

«وماذا فعلتما؟».

«اضطررنا الى قتلها بالرصاص لنريحها نهائياً من عذابها».

اطبقت عينيها لئلا ترى المشهد حتى في الخيال، وهمست:

«يا للحيوانات المسكينة! لماذا لا تطعمونها دائماً؟».

«قلت سابقاً، ان التكاليف ستكون باهظة، كذلك اذا زودناها بالطعام باستمرار، تصبح اليفة، وبالتالي لا تعود هناك مطاردة، وتمسي الغابة مكتظة بها».

«وما ضر لو اصبحت اليفة؟».

«استعملي خيالك وفكري بالنتائج. ففي هذه الحالة، ستهبط من التلال وتأكل غلال المزارعين وسيسارع المزارعون الى قتلها. لذلك لا مناص لنا من قتل بعضها بأنفسنا وبطريقتنا الأقل تعذيباً، وحيث الرصاصة الصغيرة من يد صياد ماهر، ارحم لها من الموت جوعاً، او من الموت البطيء اذا قتلت بخردق».

صوته بدأ يعكس نفاد صبره قليلاً، لكن عينيه ظلتا عطوفتين مما شجعها على القول بصمت متعب:

«ما احسبني ارغب في قتل ايل، حتى لو كنت صيادة بارعة».

«لك الحق ان تشعري هكذا، ولكن بامكانك ان تستمتعي بالمطاردة من غير ان تستعملي البندقية او تعرفي الكثير عن فنون الصيد».

تنهدت ولاذت بصمت مؤقت، وراحت تراقب ارتفاع الشمس عالياً فوق الجبال. فيما كانت اشعتها تزحف نزولاً على جوانب التلال الى الوادي. الطقس سيكون جميلاً هذا اليوم. عادت تنظر اليه وهي تشعر بقربه داخل السيارة، وقالت مشيرة الى البراري حولها:

«استطيع حقاً ان استمتع بالمطاردة برغم قلة خبرتي؟».

«لا تحوري كلامي يا سو. لا يجب ان تتجولي بمفردك، اذا كان هذا ما تقصدين. يجب ان يرافقك شخص خبير، يعرف كيف يتصرف في الظرف المناسب».

«هل تحذرني؟».

ابتسم بالتواء وقال:

«قد يكون تحذيراً، لاني استشف فيك نزعة عنيدة ومغامرة تحت قناعك. لذا اسمعي جيداً ما اقول! اذا ضبطك هنا تتجولين على هواك، سأضربك ضرباً مبرحاً يجعلك تعجزين عن الجلوس لمدة اسبوع!».

لا تستبعد ان ينفذ تهديده! احمر وجهها، ليس بدافع الغضب، بل لان فكرة عقاب كهذا اشعرتها باثارة غريبة بدلاً من الغضب. كان في علاقتهما شيء غامض لا تستطيع فهمه، فهو يميل الى قول اشياء عنها لا تنطبق على طبيعتها الحقيقية. انها فتاة عاقلة متزنة، هذا ما قاله تيم مراراً، وقلما تصرفت بلا تفكير. ابتعدت عن ميريك قليلاً وقالت بجدية:

«لا ادري ما الذي يحملك على اصدار قرار نهائي وخطير كهذا، ولا على اية اسس تقفز الى استنتاجات مستهجنة لشخصيتي!».

«قد لا يروقك تحذيري، لكن النصيحة السديدة لا تخيب ابداً، بل قد تنقذ حياتك في لحظة ما».

فأضفت الى صوتها نبرة متعالية لتضعه في مكانه:

«اعتقد انك تبالغ، وان زبائن الفندق قد ارهقوا صبرك، لكن عليك ان تتحمل، لان هذا جزء من مسؤولياتك».

قالت هذا وشمخت بذقنها متحدية، فاتقدت عيناه واسود مزاجه، فادركت للحال بانها اخطأت في التكلم بهذه الطريقة. لم تكن المرة الأولى التي تعمدت فيها اثارة غضبه، ولتجعله يدرك بأنها الوريثة الشرعية لأملاك يشتهيها لنفسه. انما اليوم، كان يبذل اقصى جهده ليؤمن لها الراحة والاستمتاع، ولذا يجب ان تلجم لسانها، وتكف عن اغاظته لتبادله حسن معاملته لها.

وقبل ان تقول شيئاً ملطفاً، تحركت يده في سرعة البرق، وقبضت على حفنة شعر عند اسفل رأسها، ناحياً عنقها بايلام، ومشدداً قبضته كلما حاولت التملص منه. وحين صرخت متوجعة، غمغم قائلاً:

«انظري حولك يا آنسة... فريزر. انظري الى البراري المتوحشة وحاذري اثارة غضبي الى حد لا تحمد عقباه. واذا كنت لا تصدقينني، سلي العمال عن مدى هياجي عندما اثور!».

ثم اطلق شعرها ودفعها عنه في خشونة، فتكورت قربه ترتجف وتحدق كالخرساء الى الطريق. تمنت لو تتبخر، او تكتسب، بطريقة سحرية، جسماً ضخماً، كيلا تحس كل هذا القزم والعجز امام ضخامته وقوته.

لم يلتفت اليها وحاولت هي ان تتمالك اعصابها، لم تجد جواباً ذكياً لعبارته الخشنة، ومرت الدقائق صامتة لبينما استطاع ذهنها المعذب ان يستعيد طاقته الفتية.

كانت البرية على الجانبين تزداد توحشاً، وكانت شجيرات الخلنج تكاد تلتهم الدرب الضيقة امامها. بدت لها الطريق طويلة جداً، فسألته وهي تغطي ارتباكها بطبقة من الهدوء:

«هل ما تزال المسافة طويلة؟».

فأجابها بصوت املس وكأنه احس ارتباكها، واراد، برغم ذلك، ان يعاقبها قليلاً:

«ليس كثيراً، انما ارجو ان تكوني قد استعدت عافيتك تماماً لتتمكني من السير والتسلق. انا لست مستعداً لحملك، حتى لو امرتني بذلك».

نظرت الى اصابعها كيلا يرى وجهها، وقالت:

«اني استحق جواباً كهذا».

«وانا ما نويت ان اسامحك بهذه السهولة، لكننا سنقضي بقية اليوم معاً، ولست بارعاً في لغة الاشارات».

مزاحه البسيط كسر حدة التوتر وجعلها تضحك من قلبها، ثم تقول مازحة:

«بما انك تكيل الصاع صاعين، فان مناداتك لي «بالآنسة فريزر» احدثت التأثير المقصود من جانبك».

جوابه المتوقع ضاع في اللحظة التي توقفت فيها السيارة فجأة داخل مرآب طبيعي منحوت في جوف الصخور. فهتفت سو متسعة الحدقتين:

«يا الهي! ما اروع هذا المكان!».

«هنا ينتهي الدرب وتترك جميع السيارات».

تطلع في عينيها يبحث فيهما عن امارات ذعر فوجدهما تتألقان بالاهتمام. اومأ باستحسان وقال:

«من الآن فصاعداً سنستعمل اقدامنا، والطريق وعرة».

فعلاً الطريق وعرة جداً، لكن سو فضلت الموت على التذمر، بالرغم من شعورها بالاستمتاع. سبقها ميريك قليلاً، حاملاً شنطة الطعام على ظهره، وكان بين حين وآخر يتوقف حتى تلحق به. كان الضباب ما يزال يلف جوانب التلال، ومع ذلك مضى ميريك قدماً لمعرفته الجيدة بالطريق. عندما صعدا اكثر فاكثر بدا المشهد رائعاً، جبال، صخور، اودية خضراء وجداول مترقرقة، فأصغت سو الى الخرير وكأنه موسيقى يبثها الهواء. ثم سرعان ما انقشع الضباب، وهب نسيم عليل، فيما انتصبت التلال ورسمت على زرقة السماء قمماً جريئة عززة.

بعد ساعة من الصعود خرجا من حقول الخليج الى جانب التل العالي. كان حاراً بلا ظلال مما ازعج سو، لكنها انتعشت حين وصلا كتف التل واحست الريح تلفح وجهها. وكم شعرت بالامتنان عندما توقف ميريك وسمح لها بأن تشرب ماء عذباً بارداً من احد الجداول.

نظر اليها متأملاً، فلاحظ لطخة سوداء انطبعت على جبينها حين ازاحت عنه خصلة شعر بأصابع ملطخة بشحوار الصخور. مد يده ونفض عنه بعض التراب الرملي وقال باسماً:

«عطشت كثيراً يا سو؟ ربما انت في حاجة الى الاغتسال ايضاً!».

انعشها الماء العذب، فبادلته النظر والابتسام وقد انستها بهجة الصعود عداءها السابق تجاهه. كانت في قمة الحيوية، يغمرها افتتان كلي بروعة البرية، فقالت:

«الهواء رائع. انه يجعلني اتسلق التلال لساعات بدون ان اتعب».

«عظيم، لكن امامنا مسافة طويلة وانت لا تملكين المتانة او الخشونة اللازمتين لهذا النوع من التسلق، فلا تهني نفسك قبل الأوان».

كم يحب تهبيط العزائم! قالت غاضبة:

«هل تفضل رفقة امرأة مسترجلة؟».

اتقدت عيناها وحاولت جاهدة ان تبقى موضوعية. انه على الارجح، يقصد النساء اجمالاً وليس فقط انثى عديمة الخبرة مثلها، ومن واجبها ان تثبت له خطاه.

«امرأة مسترجلة».

رددت بفروغ صبر وراحت تنتظر جوابه.

«انا شخصياً لا افضلها. كنت اتكلم عن وعورة الأرض وليس عني».

شقا طريقهما على كتف الجبل، صاعدين بين صخور ومتدحرجين بين حجارة. الريح التي تهب على وجهيهما صارت الآن ترتج خلفهما فتصفر من خلال الشقوق الضيقة بنواح غريب. ارتجفت سو وقالت من خلف ميريك:

«صوت الريح مخيف».

«انه مكان موحش، لكن الهواء رائع كما قلت».

لم تستطع سو ان ترى شجرة واحدة حولها او فوقها، فسألت متضايقة: «اين هي الغابة! اقصد غابة الغزلان؟».

فضحك ميريك وهو يعدل بندقيته على كتفه، وقال:

«واما اخبرك احد يا سو ان لا اشجار في غابة الغزلان؟».

عضت شفتها وتابعت سيرها خجلة. يبدو انها لن تفوز عليه، فهي تشعر فوق هذه التلال بانها جاهلة كلياً، ولا عجب ان يضحك منها ويهزأ.

اسند كوعها بكفه، وقال لما لاحظ وجهها الخائب:

«لا عليك، كثيرون يقعون في الغلطة ذاتها. لكن لا تسأليني لماذا يسمونها غابة والشجر قلما ينبت فيها».

ازالت كلماته اللطيفة كربها وتابعت السير خلفه. كان الدرب شديد الانحدار وحجرياً، لكنه سرعان ما انعطف حول منكشف صخري وانتهى عند حاجز حجري ضخم. وصلت الى حيث توقف ميريك ووجدته يتفحص التلال من خلال منظاره.

«انظري يا سو الى اعلى. هناك ايل. انظري كذلك الى «بن كروان» انه يقف على مدخل الوهدة العشبية. اذا حالفنا الحظ سنرى الايل من مكان اقرب. خذي المنظار لتريه بنفسك».

اربكتها لمسة ذراعه فتناولت المنظار بيدين مرتجفتين قليلاً، وركزته على البراري بحسب تعليماته ولم تلبث ان لمحت شيئاً بنياً يتحرك.

وسألت بلهفة وهي تنعم النظر اكثر:

«اهذا ايل؟».

«اجل. انه ايل كبير. نحن ابعد من ان نرى قرونه لكنه ضخم».

«الا يمكننا الاقتراب قليلاً؟».

«الاقتراب صعب».

ثم اضاف بصوت خافت:

«الريح في صالحنا لانها عادت تهب صوبنا، وفي هذه الحالة لا يتمكن الايل من التقاط رائحتنا. فالغزلان، لعلمك، لديها حاسة شم حادة والى درجة تشم فيها الانسان من مسافات بعيدة جداً. ولكننا سنحاول الاقتراب».

ازاح ذراعه عنها وابتعد قليلاً، فادركت سو بخيبة، ان بادرته تلك كانت لا شعورية محضة فقد كان مستغرقاً في مراقبة الأيل وغير شاعر بوجودها. سارعت الى كبت رغبة مفاجئة في البقاء تحت خيمة ذراعه، وهي تهبط خلفه باحتراس المنحدر المخيف. كان الاقتراب صعباً بالفعل، فاقل ارتطام بحجر قد يجعل هذا الحجر يتدحرج، ويدحرج معه كومة من الحجارة، ينبه الايل الى وجودهما، ولذا وجدت صعوبة بالغة في الهبوط الصامت على السطح الوعر.

لكنها اخذت تراقب دعسات ميريك الخبيرة وتقلدها، وسرعان ما اتقنت الصنعة فشعرت بالاعتزاز. ميريك بدا معجباً بها ايضاً، اذ كان يهديها ابتسامة سريعة كلما استدار اليها ليراقب تقدمها. وصلا نهاية المنحدر وقطعا الرقعة المستنقعية ثم اخذا يصعدان جانب الجبل.

اختفى الايل لفترة عن نظريهما، لكن ميريك طمأنها بانه حدد البقعة حيث كان يرعى. كان كل شيء ساكناً جداً، حتى ولا ورقة عشب تتحرك! صمت جديد بالنسبة الى سو، المعتادة على عجقة الشوارع الكبرى. ثم اصبحا يزحفان ببطء على ايديهما وركبهما، حتى وصلا حافة ربوة صخرية تطل على واد ضيق، كان في منتصفه جدول ينساب بين الحجارة، انما لا اثر لوجود الأيل.

همس ميريك في اذنها:

«انا اكيد من انه انتقل الى الجزء الأعلى من الوادي. اني اعرف مراعيه جيداً، وعشبها لذيذ تسعى اليه الغزلان».

«أأنت متأكد تماماً؟».

تقدمت الى حيث يقف، ورمقته بنظرة جانبية متلهفة، بدا قوياً ومنتظم الانفاس بعد كل ذلك الصعود الشاق، فيما كان جبينها حاراً متعرقاً،

شعرت بالحسد.

استمر يحدق الى المنحدر ثم اجابها:

«اجل متأكد. هناك ممر بين الجدول وجانب الجبل، ومتى قطعنا الجدول نصل حاجزاً صخرياً يسد الممر، لكن بامكاننا تسلقه لنشاهد الأيل من على حافته. لن تكون الزاوية مناسبة لاصطياده، غير اني لا افكر اليوم بذلك».

واصلا هبوطهما الى حيث الجدول، وبعد عدة دقائق استطاعت سو ان ترى الممر بين الجدول وسفح الجبل. اجتاحتها اثارة غريبة، كانت مزيجاً من المشاعر المكبوتة والمتلهفة في آن واحد، لا تخلو من علاقة قوية بالرجل الواقف معها. هكذا اعترفت لنفسها.

«الآن نصعد سفح الجبل».

قال لها ميريك بليونة وهو يشير اليها بأن تتبعه عن كثب.

كانت الشمس تدفىء الصخر، والفجوات مغطاة بالعشب وبيرك صغيرة من الماء. بعض الاماكن كان لزجاً، فرحبت سو بيد ميريك التي امتدت تساعدها، وتعلقت بها في قوة وهي تنهض واقفة من كبوتها. حمدت الله عندما بلغا القمة، اذ كانت مقطوعة الانفاس ومتعرقة وشعرها مبعثراً على وجهها، ولما نظرت الى تحت، رأت قبعتها الصوفية معلقة على غصن شجرة يابسة.

قربها ميريك منه وافسح لها مكاناً قربه. ومن مكانهما عند منتصف الجبل، تمكنا من رؤية قمة الوادي. كانت صغيرة المساحة ومكتظة بصخور سقطت على الارجح من صخور اعلى. بدا العشب ندياً اخضر، وغريباً بالنسبة الى هذا الوقت من السنة. وسرعان ما انجذب بصرها الى الحيوان الذي كان يقضم العشب، وهو غافل تماماً عن الغريبين المحدقين اليه. كان ايلا جميلاً بني اللون وذا قرن متشعب.

٨ - هل انت بلهاء؟

في غمرة لهفتها، تشبثت بذراع ميريك، لكنها تذكرت وجوب الكلام همساً:

«ما اجمل هذا الحيوان!».

شهقت في خفوت، وعيناها تشعان اعجاباً! لأول مرة في حياتها تشاهد ايلاً خارج الافلام والصور، ولذا راحت تراقبه مسحورة من مكمنها العالي على الصخرة. كان يبعد عنهما مسافة مئة ياردة، ويرعى متقدماً في بطء صوبهما، فاستطاعت ان تحصي عشرة فروع في قرنه. ولما استفسرت ميريك عن صحة احصائها، وافقها عليه واضاف:

«انه ليس من الايائل الملكية، فهؤلاء تتشعب قرونهم في اثني عشر فرعاً، ولكنه رائع، واقدر عمره بتسع سنوات. لن تري واحداً افضل منه».

ولكي يتيح لها مشاهدة افضل، فرد ساقيه، ووضع بندقيته على سطح الصخرة. جلست سو قربه، حولها صمت عميق، مكنها من سماع حوافر الايل وهو يركل الحجارة. كان يتقدم نحوهما في بطء شديد، وفي غفلة تامة عن وجودهما.

«قد يكون هناك اكثر من واحد».

همس ميريك وهو يعدل جلسته في الحيز الضيق. كان قريباً منها حتى لتكاد ترى وجهها منعكساً في عينيه السوداوين. وخشيت لبرهة ان تتحرك او تتكلم او تفعل اي شيء من شأنه ان يعكر احساسها باللاحقيقة. فساقه الطويلة القوية العضلات تكاد تلاصق ساقها، وانفاسه تلفح خدها بدفء

عندما يتكلم. كان قربه لاهباً، يصرف ذهنها عن الحيوان الراعي قبالتهما.

تنفست بعمق وقالت بسرعة:

«يخيل الي ان الايائل تتشابه، كما الخراف».

«لا تقولي هذا الكلام امام المسؤول الأول عن القطيع، فهو يعرف معظم الايائل من مجرد النظر اليها. اننا نجمع قرونها احياناً لنحدد تطورها، وهي تستبدل قرونها كل سنة بقرون جديدة.

وفي احدى المرات استطعت، انا ودونالد، ان نجمع ثلاثة قرون على مدى ثلاث سنوات متتالية للأيل نفسه. كان في الثامنة من عمره، والقرون تلك اظهرت تحسناً ملحوظاً بالرغم من ان عدد الفروع لم يتغير».

سرها ان ميريك يهتم بتطور الحيوانات الحياتي كاهتمامه باصطيادها، ومع ذلك سألته بنبرة لوم خفيفة:

«كيف تختارون الايائل الواجب قتلها؟».

«نختار عادة ذوات القرون المشوهة لانها لا تصلح للتناسل الاصيل بصورة عامة. ثم هناك النوع الذي ليس له قرون على الاطلاق، بل كتل عظمية قاسية بدل القرون».

«كنت احسب ان الناس يفضلون اصطياد الايل الملكي على سواه».

«ليس دائماً، اننا لا نصطاد الكثير من هؤلاء، ولكن، قبل ايام، حظي احد الصيادين بواحد رائع من ذوي الاثني عشر فرعاً، يصلح تماماً للامتطاء، ارسلناه الى محنط حيوانات في مدينة دندي لكن لا تحسبي ان جميع نزلاء الفندق يرغبون دائماً في الاصطياد، فكثيرون منهم يطلبون فقط ان يشاهدوا ويتعلموا، مثلما تفعلين انت الآن».

اشاحت عنه وقالت ناظرة الى الايل:

«لم اعرف بأنك ستتيح لي هذه الفرصة الا بعد خروجنا يا سيد فيندلي».

فأجابها في سخرية ناعمة:

«هذا جزء من الخدمة».

اغاظتها نبرة صوته، فاستدارت بحدة، وسببت في تدحرج حجر صغير، بالكاد تقدر الاذن البشرية ان تسمع صوت سقوطه، لكن الايل توقف فجأة، ورفع رأسه منصتاً، ثم امال بدنه البراق جانباً، وراح يتنشق الهواء. وقبل ان يتحرك احدهما من مكانه، ركض الى الجدول بقفزة

واحدة، وقطعه بوثبة اخرى ليختفي في ثوان في اسفل الوادي. سرعته اللامعقولة اذهلت سو، فشهقت، ثم خيم صمت ثقيل، قطعه ميريك حين نهض برشاقة، وقال:

«عساك فهمت الآن لماذا يبتعد الناس دائماً عنهم».

فنهضت بدورها وقالت في وجوم:

«اعتقد اني كنت اوفر حظاً من سواي».

«اجل كنت محظوظة، ويجب ان تكوني ممتنة لوجودك مع مطارد غزلان قدير».

«ما حسبتك من عشاق الامتنان يا سيد فيندلي».

«اذا خاطبتني بالسيد فيندلي مرة اخرى، فلن تعرفي ما الذي دهاك الا بعد ان تفيقي من الاغماء!».

رقصت على شفتيها ابتسامة لا مبالية، وقالت:

«انك تفيض اليوم بالتهديدات المخيفة! معظمها فارغ على الارجح لكني لا استسلم للخوف بسهولة».

لم يكلف نفسه عناء الرد. اكتفى بهزة كتف، واستدار يتابع هبوطه، تاركاً اياها تتدبر امرها. ألقت نظرة حزينة على مكان الايل الخالي ولحقت بميريك متعثرة، فاذا بها تنزلق على الصخور وتسقط في كومة مخجلة عند قدميه.

لم يبد اية محاولة لمساعدتها، بل قوّس حاجبيه وغمغم هازئاً:

«هذه طريقة جيدة من طرق السقوط».

شخصت اليه في احتقار وهي تلملم نفسها وتنهض. كانت يداها مخدوشتين حيث حاولت التشبث بصخرة، كذلك احست ألماً في احدى ساقيها. لكن كل هذا، لم يحرك فيه عرقاً! من العبث ان تقذفه بأية عبارة لاذعة لانها سترتد كما الكرة من على جدار غروره القاسي! حتى الآن، هي تنفض الغبار عن ثيابها وهو يلتقط معطفه وينظر الى ساعته... قال:

«لنتناول الطعام وبعد ذلك نتهيأ للعودة. الساعة تقارب الثانية وامامنا مسافة طويلة».

سار على الدرب الحجري بخطوات عريضة ثم توقف قائلاً:

«في اعلى الطريق يوجد مكان جيد زرته من قبل. انه اكثر راحة من

الجلوس على الصخور».

مشت وراءه بمحاذاة الجدول صعوداً، ولما توغلا في الوادي الصغير، احست باثارة العزلة، وكانهما رائدان يستكشفان بقعة سحيقة من العالم ويرتحلان على ارض بكر. اطلقت لخيالها العنان، فراح يعدو في كل الاماكن التي تاقت لرؤيتها والتي لن تراها على الارجح. احست الوادي مكاناً عتيقاً، نحتته عناصر الطبيعة بأروع النقوش، وتضافرت الشمس والريح والامطار على جعل صخوره قمماً وشقوقاً وفجوات. اعترتها رجفة باردة حين اطبقت عليها العزلة كحبيب يرفض اخلاء سبيلها. . . هنا، قد يضيع المرء لسنوات قبل ان يجده عابر طريق.

وسرعان ما وصلا البقعة التي ذكرها ميريك، وكانت عبارة عن حلقة من الصخور المظللة، ذات ارضية مسطحة مغطاة بعشب محروق يابس، لكنه كان سميكاً كغطاء مريح للجلوس.

«هل يفي هذا بالغرض؟».

سألها ميريك باسماً وهو يناولها حقيبة الطعام. وبدون ان ينتظر موافقتها، اسند بندقيته الى صخرة ملساء، ثم نزع سترته الجلدية ولفها كوسادة قبل ان يستلقي. وفي الاخير، مدد ساقيه وقال:

«هيا، قدمي الطعام يا امرأة».

تأملت طوله بشيء من الحنق ثم اعتراها خضوع غريب جعلها تنفذ طلبه. حاولت اقناع نفسها بانه يستحق الخدمة بعد مشقته وليس لان قلبها لم يعد قادراً على مقاومة هذا الرجل المغرور الوسيم. بدا لها امراً جد طبيعي ان يرتاح هو وتقدم له هي الطعام الذي هيأته السيدة لينوكس. استعاضت عن المائدة بصخرة مسطحة قريبة، وضعت عليها ساندويشات اللحم والتفاح.

جلست قرب ميريك، ففتح عينيه، وارتكز على مرفقه حين ناولته الساندويش فلاحظ آثار التبلل على وجهها، وكانت غسلته بماء الجدول. تأمل بشرتها الزاهية، وقال:

«انت خادمة بارعة، ولو كنا في عصر اخر لفكرت في ابتياعك».

«هذا اطراء على ما اعتقد. لكن هل كنت ستساوم عليّ في سوق النخاسة؟».

«ربما، بدافع الاغراء».

«حتى لو كان السعر باهظاً؟».

احتواها بنظرة كسولة، فعبقت من شيء لاهب تراءى لها في عينيه، وجعل حلقها ينبض. فضحك وقال:

«انت التي قلت ذلك، وليس انا يا حلوتي سو. قد تجعلين الرجل في لحظة ضعف، لا يفكر في السعر اطلاقاً».

«لكن من الجائز ان تندم على ذلك في وقت لاحق!».

اي غباء يحدوها على متابعة هذا الحوار الخاوي والذي يشبه السقوط في هوة بلا قرار؟ استمر يرمقها بسخرية، وقال:

«قد يتوقف الندم على عدة امور، لأن سعر بعض الاشياء يفوق قيمتها الحقيقية يا سو».

اندلعت فيها شرارة غضب فأطفأتها بقضم تفاحة بأسنانها اللؤلؤية. ثم قالت:

«انك لا تحب النساء كثيراً، اليس كذلك يا ميريك؟».

«ان لك موهبة عظيمة في طرح الاسئلة السخيفة يا سو. بالطبع لا اكره النساء. لكن رأيي فيهن. . . هو شيء آخر بالمرة. . . هل تقصدين النساء بصورة عامة؟».

ماذا يقصد؟ لن تطلب اليه ان يشرح قصده، لانها تدرك غريزياً ان الحكمة تقضي بتغيير الموضوع. هزت كتفيها النحيلتين، وتظاهرت بالتثاؤب مللاً، ثم تشاغلت بسكب القهوة.

«لقد استمتعت اليوم تماماً».

اكدت له في تهذيب جم وهي تضيف السكر الى فنجانه، وتابعت:

«الايل كان رائعاً. . . وكذلك هذا المكان».

رفع حاجبيه ليفهمها انه وعى تجاهلها لسؤاله الأخير، وغمغم بلا اكتراث:

«طالما سمعت هذه الحماسة وهذا الكلام من قبل».

«ليس غريباً ابداً، ان يقع المرء في حب مكان في خلال وقت قصير».

فأعاد فنجانه في تكاسل وقال بصوت لطيف:

«هذه الاماكن البرية الوعرة، لا تناسبك يا سو. انت انسانة طيبة وجميلة

ولكن لا توهمي نفسك بعكس ذلك، فالنباتات التي تنمو في بيوت زجاجية خاصة يجب ان تبقى فيها، وان لا تسعى الى الازهار حيث اقسى النباتات تقدر فقط ان تحيا».

«لقد رافقتك اليوم الى هنا، وتغلبت على كل تلك الأراضي الوعرة، وبرغم ذلك تجرؤ على هذا الكلام!».

تجاهل شهقتها الغاضبة فنهض وحمل فنجاني القهوة الى الجدول حيث شطفهما، وعاد ليقول وكأن شيئاً لم يكن:

«من النادر ان يكون الطقس حاراً هكذا، وكأننا في يوليو/ تموز».

راقبته من تحت اهدابها الكثة، وقبضت بالرغم منها على حجر كبير وكأنها تنوي رجمه به. لماذا يستمتع باثارة غضبها، وباثارة خليط من العواطف قد لا تستطيع فرزه ابداً عن بعضه البعض؟ وهتفت تتهمه حانقة:

«انت لا تشعر نحوي بأي ود، اليس كذلك؟».

وحالما نطقت العبارة، احست انها قالتها له من قبل. استدار وجلس قربها في هدوء واجاب:

«قد يكون صحيحاً ما تقولين. لكن ليس من الضروري دائماً ان يكون الود عنصراً في العلاقة بين رجل وامرأة. ام تراك لا توافقين؟».

عيناه فسرت قصده حين راحتا تتأملانها كلها، ثم جذبها الى ذراعيه في قوة وبطء، محيطاً خصرها بذراع، ومسنداً راسها وكتفها بالاخرى.

بعد ذلك بفترة طويلة، تساءلت سو لماذا لم تحاول الهرب، ثم وضعت اللوم على شدة الحر التي بلدت حواسها جزئياً، وعلى صمت المكان المغناطيسي. كذلك الشعور بانها وميريك فيندلي كانا منعزلين عن العالم فاعتبرته استمراراً طبيعياً للبهجة التي غمرتها في الصباح.

تململت قليلاً، اذ احست خطراً خفياً من البقاء حيث هي، لكنه منعها من الحركة، وقال يأمرها بصوت كسول، وذقنه تضغط على راسها:

«لا تتحركي! تذكري انك عبرت لي قبلا عن امتنانك!».

هل يقصد؟ حاولت الكلام فالتصقت الكلمات في حلقها. كان هناك استمرار غريب لشعور سابق يتغلب عليها ويمنعها من الاعتراض. اما ميريك، فكان يحضنها بلطف، وكأنه يبغي تطمينها، بالشكل نفسه تقريباً

الذي يطمئن به حيواناً صغيراً وهو يأسره بين ذراعيه. وهنا، شعرت نفسها مضطرة الى القول:

«هل من عادتك قبض الثمن، بهذه الطريقة؟».

«وهل هناك طريقة اكثر ارضاء من هذه؟».

صمتت تفكر في عبارته فلم تعجبها كثيراً. كانت تدرك مدى قسوته لو اراد استعمالها، وتدرك خطورة مناورته، وبرغم ذلك لم تكترث. صحيح ان سكونها التام قد يكون مدعاة للمشاكل، غير ان انسجامها العاطفي بين ذراعيه بدا صعب المقاومة. انها تعانقه ليس الا، وقد آن لها، وقد بلغت الحادية والعشرين من عمرها، ان تتخلى قليلاً عن روادعها العاطفية السابقة. لكنها تنهدت بيأس وهي تتمنى لو انها تملك بعض الارشادات المناسبة!

ودونما توقع، ارتكز ميريك على مرفقه، وقال متسائلاً:

«لماذا تتنهدين يا حلوتي سو؟ اتراك محتارة في كيفية التصرف ازائي؟».

رن صوته هازئاً متسلياً، فأحست بمقاومتها المتلاشية تعود الى التصلب، وقالت نافية التهمة باستخفاف:

«لم افكر في ذلك اطلاقاً!».

ولكي تثبت صدق كلامها، نظرت مباشرة الى عينيه، لكن ابتسامتها الصغيرة لم تنجح تماماً، اذ قرأت في نظرته شيئاً جعلها ترفع رأسها متحدية، وفي اللحظة نفسها، انحنى بغاية اللطف والرقة، وعانقها...

حاولت الافلات، لكنه امسك برأسها من خلف وجد عنقها، ثم راح يداعب شعرها ويبعد خصلاته الحريرية عن جبهتها واذنيها.

عانقته تلقائياً، ومررت اصابعها في شعره الاسود، ثم ابعد وجهه فجأة، وغمغم:

«يا لسو المسكينة التي حسبت انها ستحسن التصرف!».

لسعتها كلماته الهازئة بعجزها عن مقاومة ارادتها العاطفية الخائبة، فاجابت بشهقة مبهورة:

«قد استطيع التصرف اذا اطلقت سراحي، فلولا قوتك الوحشية...».

فبرقت عيناه وهو يقول:

«لماذا تلجأين دائماً الى الاعذار يا سو؟ قد تتذرعين بعد قليل، بانك تحملين كرهاً اساسياً لهذا النوع من التحبب».

كان ذهنها يتخبط في ضباب، ففضلت الاعتراف بانصاف الحقائق، ولذا اجابت:

«ليس تماماً، لأن ذلك يتوقف على الذي يكون معي».

«تيم ماسون مثلاً؟ اني لأتساءل، هل تكذبين دائماً الى هذا الحد؟».

«انك لا تصدقني، اذن؟».

«اصدقك كما اصدق الشيطان!».

غمغم بخشونة وهو يضمها مجدداً الى صدره، فنسيت كل آرائه فيها، وقد فقدت الشعور بكل شيء الا بحاجتها الى حبه ودفئه.

احسها ترتجف، فرفع رأسه قليلاً وتمتم:

«كيف كانت ايامك الجامعية بالنسبة الى الحب؟».

«لا عليك من ذلك».

سمعت نفسها تجيب من خلال ضربات قلبها المدوية. لقد عادت تكذب. مدفوعة برغبة مجنونة في البقاء بين ذراعيه، ولأنها اذا اعترفت له ببراءتها، فلن يعود راغباً فيها، وهي لا تتمنى في هذه اللحظة الا ان يكون لها.

«سو».

هتف اسمها في خشونة، فحسبته سيحرمها من هذه اللحظة التي انتظرتها طوال حياتها، اللحظة التي قد تسمح فيها باغراق العقل في لجة الاحساس الجارف، الا انه شدد عناقه، فاختفت ظنونها وارخت العنان لمشاعرها.

«حبيبي».

همست بصوت مكتوم، لكنه سمعه على الارجح لكونه رفع رأسه على التو، وبدا كأنه يتراجع، اذ نهض واقفاً بحركة رشيقة واحدة.

انهضها معه بسرعة وانتظر حتى استعادت توازنها، وقال بصوت جاف انما فيه مسحة انفعال:

«ماذا توقعت هذه المرة، يا حلوتي سو؟».

تجمدت عيناها الزرقاوان وهي تشخص اليه، فيما انعكس اضطرابها

الداخلي في الاحمرار الذي خضب بشرتها البضة. فهتفت:

«اني اكرهك!».

كانت تحاول ان تتحداه في عنف، كارهة غروره، ومتمنية العودة الى ذراعيه في الوقت نفسه. قلص اصابعه على ذراعها ليمنعها عن الحركة واجاب:

«لا. انك لا تكرهينني. لكنك قد تمقتينني اذا بقينا هنا. بالله عليك يا سو، انضجي قليلاً!».

بدا جسمها النحيل وكأنه يلتوي على ذراعه، وقالت بصوت خافت يمازجه توتر وحيرة:

«هذا الحديث لن يفيدنا».

«لو جاريتك لما كنت غفرت لي ذلك ابداً يا سو، بل قد تتهمينني بأنني تعمدت توريطك لاحصل على الاملاك، بأنني كنت احاول تقييدك الي بسلاسل لكونك وريثة».

«لا يمكن ان تكون جاداً في ما تقول؟».

ولبرهة قصيرة، استوقفه شيء ما في وجهها، لكنه سرعان ما ابتسم بدمائة، وقال مبعثراً آمالها الصغيرة اكثر فأكثر:

«في الواقع، كلانا يتصرف في حمق يا سو، وكلانا لا يعجبه تصرف الآخر. انا ما تعمدت ايذاءك حتماً، ولكن، لننسَ ما حدث، طالما الصباح لن يأتي بجديد. على كل حال، يجب ان نعود الآن لنصل غلينرودن قبل حلول الظلام، ولا اعتقد انك ستستمتعين فعلياً بقضاء الليل معي هنا».

احست ببرودة جليدية وهي تمشي خلفه على ضفاف الجدول، ومن ثم على منحدر التل الوعر، وحيث اضطرت الى الركض احياناً لتجاري خطواته العريضة السريعة. كانت تحدق الى ظهره العريض في تعاسة، وتحس خواء شديداً ما احسته مرة من قبل... حين كانت واياه على الجبل، وذراعاه تحميانها من قسوة الشمس والريح والصخور، لم تهمها العودة الى غلينرودن، اما الآن، فلا ترغب الا في ايجاد مكان تخبيء فيه وجهها، والشيء الوحيد الذي يريحها، هو ان ميريك لم يدرك مبلغ الألم الذي سببه لها برفضه لعواطفها.

كانت السيارة في انتظارهما حين وصلا الطريق الاقل انخفاضا.، وبعد ان وضع ميريك اغراضها على المقعد الخلفي، استغربت ان يفتح لها باب السيارة ويتبرع بمساعدتها على الصعود. وفيما همت بذلك، استدارت بسرعة ونظرت اليه... خشونته اضفت عليه وسامة ذات نوع خاص - عيناه السريعتا الملاحظة، فمه المتماسك وحنكه المقدام، شعره الكثيف الاسود والملتمع حيوية. ادركت في تلك اللحظة انها تحبه، فأرخت اهدابها، كيلا يقرأ ما تحتها، وشعرت بشيء من التعزية لكون تصرفها على الجبل، لم يصل حد الابتذال، بل كانت مدفوعة بعاطفة قديمة كما حواء، لكن اكتشافها بانها تحبه، اذهلها للحظات، فهي لا يمكنها ان تخبره ذلك بمطلق طريقة، وعليها ان تتحمل النتائج في حال ظن بها اسوأ الظنون.

كان ينتظر صعودها ليغلق الباب، لكنه رفع حاجبيه في سخرية وقال بنظرة فضول:

«اخبريني بماذا تفكرين، ادفع لك فلساً!

«افكاري ليست للبيع».

«لكن وجهك كان يعبر عن اهميتها».

«احسبني كنت احلم في اليقظة. انها احلام غير مهمة على اي حال».

«قد اطلب منك غداً ان تطلعيني عليها بالتفصيل. اما الآن فيجب ان نتحرك لئلا يقلق جون، وبخاصة انه ائتمني على حراستك».

لفظ العبارة الأخيرة بمحبة زائدة جعلت قلبها يقفز بين ضلوعها. كانت معنوياته مرتفعة لسبب ما، ولم يحاول اخفاء سروره. هل تراه يحبها قليلاً وهي لا تدري؟ كان في ضحكته رنة وعد، لا تجرؤ على التفكير فيه خشية ان تكون واهمة في ما سمعته. اومأت برأسها، ولم تعلق بشيء حين اغلق بابها بلطف وصعد الى جانبها.

كان الظلام يتجمع لدى اقترابهما من البيت، لكن اثناء مرورهما بالخليج، كانت الشمس الغاربة ما تزال قرصاً احمر يتوهج على الماء من بعيد. الخريف في الريف، يثير وحشة الحنين عندما تذوي النباتات وتشحب اوراقها. وفي ضباب الصباح الطامس، والغيوم السمراء فوق التلال، هناك حزن وتأمل، واحساس بالنهاية مع اقتراب رحيل الخريف. شعرت بدموع حارة تلسع باطن جفنيها وتقلص حلقها، ثم كادت تهتف

فرحاً وارتياحاً عندما وقفت بهما السيارة عند مدخل البيت. هبطت منها وقالت في حماسة:

«سادخل فوراً لاطمئن على ابي، فلا ريب انه استوحش في غيابنا».

لكنها اخطأت التفكير، وتمنت في ما بعد، لو ان رجوعهما لم يصطدم بذاك الخبر!

استقبلتها السيدة لينوكس عند اسفل الدرج الداخلي الفخم، وهتفت بشيء من الارتباك:

«اوه، كم انا مسرورة لعودتكما! لديك زائر يا سوزان، اسمه السيد ماسون، واحترت ماذا افعل بشأنه».

كان ميريك قد القى يده بخفة على خصرها وهما يدخلان البيت، واعتبرتها مجرد بادرة ودية، ومع ذلك استمدت منها طمأنينة كبيرة وسعادة لا توصف. غير انها احست يده تتقلص، وللحظة عابرة استشعرت غضبه وتحفظه.

اسقط ذراعه بسرعة فتملكها حزن ممزق. هل يعقل ان يكون تيم هنا؟ واجابتها السيدة لينوكس على هذا التساؤل حين اضافت:

«جاء بعد الغداء وبدا متضايقاً لانه لم يجدك يا سوزان. لكنه انسجم مع والدك كسريان النار في الهشيم، وامضيا الوقت بطوله يتحدثان ويتسامران. لقد هيأت له غرفة، وهو الآن فيها. انه سيمكث عندنا بالطبع، او على الاقل، هذا ما يعتقده السيد فريزر».

فأومأ ميريك برأسه وقال بدماثة:

«طبعاً، فنحن نرحب جداً بصديق سوزان، ارجو ان تكوني رحبت به يا سيدة لينوكس».

كان يتكلم والخيبة تجتاح سوزان، فتقلص اعصابها وتسرق اللون من خديها. لا جدوى من القول ان هناك خطأ ما، او ان الزائر قد يكون شخصاً اخر في حين كانت تدرك غريزياً انه هو ولا احد سواه. ولكن لماذا قطع كل تلك المسافة ليأتي الى غلينرودن؟ لماذا؟ انها لا ترغب في رؤيته على الاطلاق. ليس الآن على الاقل. انتبهت للصمت الثقيل الجاثم حولهم، فرطبت شفتيها الجافتين وسألت السيدة لينوكس بقولها:

«هل ذكر سبب مجيئه؟ هل يريد شيئاً؟».

اسئلة سخيفة وغير لائقة ما كان يجب ان تنطقها، وكانت ستسترسل، لولا شيء رأته في وجه ميريك وهو يرمقها واجماً، فجعلها تتوقف.

وقبل ان ترد الممرضة، غمغم ميريك في سخرية:

«لا تطرحي اسئلة سخيفة ياسو. من الواضح ان الرجل لم يستطع الانتظار فجاء، واكرر ترحيبنا به لبضعة ايام اذا شاء، وفي الواقع، قد نستمتع بوجوده، اذا احسن التصرف».

كان في نبرته عنجهية لسعتها وحسستها بأنه شخص غريب وليس ميريك الذي احاطها بذراعيه في البراري، واوجد لديها انطباعاً، في طريق عودتها، بأن علاقتها كانت ترتفع بحذق الى مستوى اخر! لم يسعها اللحظة، الا ان تشخص اليه بقلب مثقل، وهي تحاول لا شعوريا ان تبرر تصرف تيم:

«ارجح انه اخذ اجازة وفكر ان يقضيها هنا ليفاجئني. لم يخطر له ان زيارته قد تكون في غير محلها».

فقاطعتها السيدة لينوكس وهي تجيل بصرها بينهما:

«ليس في زيارته اي ازعاج يا سوزان، فلا تدعي ذلك يقلقك. اذا كان السيد فيندلي لا يعارض، فسأتعاون واياك على عمل البيت الاضافي».

«الأمر لا يعودالى السيد فيندلي!».

ما قصدت ان تقول هذا، لكن الكلمات انزلقت منها في رعونة.

«سو!».

صفعتها صرخته القصيرة فارتبكت، واستدارت تبتعد عنه، ثم عادت تنظر اليه لتفاجأ بشحوب وجهه الشديد. لم تكن تدري انه لولا وجود الممرضة، لكان فقد اعصابه. لكنه اندفع من امامها في احتقار حتى وصل نهاية البهو، وقال بصوت متوتر وظهره اليها:

«اذا احببت دعوة ضيوف في مرة مقبلة، فارجوك ان تعلمينا مسبقاً بقدومهم، من اجل راحة والدك على الأقل».

لكن زيارة تيم لغليبرودن لم تحدث تأثيراً سيئاً بالنسبة الى جون الذي بدا مستمتعاً برفقته، وحيث كان الاثنان يمضيان فترات طويلة يتحدثان معاً، مما اشعر سو ان صداقتهما كانت تتطور في سهولة مذهلة، بعكس صداقتها مع جون التي كانت تتسم بمحاولات مفتعلة لترسيخها وبجهود مضنية

لجعلها علاقة عميقة ثابتة، وكل هذه المبادرات، كانت تضني سو لدى احتكاكها اليومي مع ابيها. متعتهما المشتركة الوحيدة انحصرت في اعداد الكتاب، وعدا ذلك، لم يطرأ اي تغيير مهم كفيل بتعزيز علاقتهما. كانت تسمعهما يتحدثان ويضحكان في انسجام، فيبدو لها ان ذلك يثبت شكوكها، بأن هوة السنوات التي فصلتهما عن بعض كانت اوسع من ان يستطيعا تقريبها كما يجب. وبانه ان لم يحدث تغيير ما، فلن تقدر ان تشعر شعور الابنة الحقيقية لهذا البيت، او تقبل بأخذ اي حصة من غليبرودن في حال وفاة جون.

تيم من جهته، لم تساوره ظنون كهذه... بدا، كابيها، دائم الاستغراب لشبهها الشديد بعائلة فريزر، ولم يفوت اي فرصة ليجهر باستغرابه هذا. كان يوقفها باستمرار امام لوحات العائلة، لوحة اثر لوحة، ويتصفح معها الالبومات السميكة المتضمنة صور العائلة الفوتوغرافية ليؤكد شبهها لهم بوجهها وقوامها معاً.

في صباح اليوم الثالث على وصوله، كانت واياه في غرفة الجلوس وقد حال المطر والريح دون خروجهما، فهتف تيم ضارباً على الوتر اياه:

«ما عاد لدي اي شك يا سوزان في انك ابنة فريزر. كم كنت حكيماً عندما سمحت لك بالمجيء الى غليبرودن. في اي حال، اخبرني جون ان محاميه درس التفاصيل وتأكد من بنوتك لجون تماماً. يكفي ان تنظري الى لوحة جدتك لتأخذي الجواب الصحيح».

استرسل في ثرثرته، فاستمعت اليه مرغمة وهي تجيبه بهزة كتف وايماءة رأس بين حين واخر. لماذا احست بلسعة خيبة لما سارع تيم الى مخاطبة ابيها باسمه الأول بمنتهى السهولة؟ صحيح ان والدها يكره المجاملات واستعمال الالقاب، انما كان يجدر بتيم ان يتمهل قليلاً في رفع الكلفة. ساءها كذلك، ان يكسب ثقة جون بسهولة مماثلة، فبعد يومين فقط على وصوله، صار يعرف عن غليبرودن اكثر بكثير مما حاولت هي ان تعرفه على مدى اسابيع طويلة... وايضاً، صار عند جون شبه انطباع بأنها وتيم سيتزوجان، وكلما حاولت افهام جون عكس ذلك كان يعزو اعتراضها الى خجل الفتيات الطبيعي حيال موضوع الزواج.

عيل صبرها من ثرثرة تيم فقالت اخيراً:

«اعرف انك على صواب يا تيم، لكن ارجوك ان تكف عن هذا الحديث الذي نخرت به اذاننا حتى كاد يرهقنا. انك تصر عليه وكأنك تحاول جاهداً ان تقنع شخصاً معيناً بهذه الحقيقة».

تغير وجهه وقال:

«اي شخص؟ ذلك المدير مثلاً؟ انه يحتاج الى من يضعه في مكانه، وقد افعل هذا اذا طالت اقامتي هنا».

«لكنك لن تمكث اكثر من اسبوعين... اليس هذا ما قلته انت؟ على كل، لست متأكدة تماماً من مركز ميريك الصحيح...».

«اذن قد حان الوقت للتأكد!».

كان صوته يحمل تهديداً غريباً، فتعثر النفس في حلقها، واحست برعشة خوف لم تفهم لها سبباً، حين رأت في وجهه تصميماً عنيداً.

«ارجوك».

همست وهي تحدق اليه وتحاول تنظيم افكارها، تصرفه هذا، يغمرها بتخوف متزايد ويحملها على الاقرار بانها ما عرفت الاسترخاء من حين مجيئه، فعادت تتمنى، للمرة العاشرة ربما، لو انه لم يأت اطلاقاً. تباً لهذه الاجازة غير المنتظرة والممتعة بالنسبة اليه والتي بدأت تتحول خيبة ذريعة بالنسبة اليها. جاء بقصد ان يفاجئها، كما حزرت من قبل، ولم يلاحظ ابداً استقبالها الفاتر له. كان مشغولاً باكتساب ود جون والسيدة لينوكس، اما ميريك فكان يعامله ببرود وبتهذيب ارتجالي كالذي يبدر من زائر مهم تجاه خادم في المرتبة السفلى، فتشعر احياناً بانكماش عاجز امام نبرة صوته.

«لماذا ترجينني؟».

«كنت سأطلب منك الا تحاول التدخل يا تيم، لان ميريك فيندلي، لا يستغنى عنه في عدة مجالات، انك لم تقض الوقت الكافي للتأكد من ذلك بنفسك، لكن حاول ان تتذكره في المستقبل. كما ان والدي سيستاء اذا فعلت شيئاً من شأنه ان يزعجه».

«هكذا اذن...».

قال تيم وعيناه تتركزان في ارتياب على محياها العابق، فيما لاحظت سو انه بدا غير مكترث بالسبب الذي جعلها تدافع عن ميريك. وتابع بنظرة ثاقبة:

«بدأت اتساءل عمن سيكون الأكثر انزعاجاً من سواه! لكن لا تحمري او تقلقي يا سوزان فانا لا ابغي الا المحافظة على مصالحك».

فأجابت في تحد وغضب:

«ليست لدي اية مصالح تحتاج الى رعاية يا تيم، لذا ارجوك ان لا...».

«ان لا ماذا؟ الا ازعج ميريك فيندلي العظيم؟ هل تخافين منه يا سوزان؟ يبدو لي انك تتحرقين بكل قواك للوقوف في صفه!».

فأجابت في اصرار:

«ادافع عنه لاننا لا نستطيع ادارة الاملاك بدونه. اما قولك باني اخاف منه، فهذه فكرة مضحكة لا ادري من اين اتيت بها يا تيم. اني نادراً ما اراه».

لم تبعد كثيراً عن الحقيقة، فميريك بالكاد اقترب صوبها، الا في اوقات الطعام التي صار يواظب على مواعيدها. وعدا ذلك، كان يتجاهلها ويقصر كلامه على التحيات العابرة، هذا الوضع بينهما كان نتيجة الحادثة على الجبل اكثر مما نتج عن مجيء تيم وحيث تزامنه كان فقط من باب المصادفة. لذلك لن تزداد علاقتهما السيئة سوءاً بسبب اي شيء قد يفعله تيم او يقوله، ولكن من اجل الحفاظ على صحة جون، عليها ان تحاول الحفاظ على المعاملة المهذبة التي ما زال ميريك يمارسها تجاهها.

وراحت تراقب تيم وهو يروح ويجيء، مفكراً في ارجاء الغرفة، متفحصاً اللوحات الرائعة والتحف الثمينة في خزائن الاثريات، والمنسقة بشكل تزييني على رف الموقد الجميل.

وقال فجأة:

«هناك رجال آخرون، لديهم القدرة على ادارة الاملاك بنجاح. عندما نتزوج يا سوزان، سأبحث عن شخص اقدر من ميريك».

فأجابت ثائرة:

«انا اكيدة بانك ستفعل!».

استدارت على عقبيها لتخرج ثم سمعت حركة عند الباب، فخنقت شهقة فزع حين رأت كارلوت كريغ تقف على العتبة وتحدق اليها.

٩ - رقصة وحيدة

كم من الوقت مر على وقوفها هناك؟ قالت سو لنفسها وهي ترفع يدها الى وجهها في محاولة فاشلة لاخفاء الارتباك الذي صبغ خديها بحمرة قانية. اما كارلوت، فكانت تبتسم بمرح، ولم تعط اي دليل على انها سمعت شيئاً، ولكن ما اصعب التأكد من تصرفات كارلوت!

«الا تنوين ان تعرفيني الى صديقك؟».

طرحت السؤال بلهجة استغراب، وارسلت بصرها داخل الغرفة ليستقر بفضول على وجه تيم الناظر اليها بفضول مماثل. تمالكت سو نفسها، وقامت بمهمة التعريف برصانة، بيد ان افكارها كانت تتلاطم وهي ترقب تيم يصافح كارلوت ووجهه يفيض بالود والبشاشة. تذكرت ما قاله لها لحظة وصول كارلوت فاجتاحها الغضب. كيف تجرأ على احراجها بهذا الشكل حين افترض بانها تتلهف للزواج منه؟ لماذا، اواه... لماذا لم تفهمه رفضها القاطع يوم سألها الزواج في لندن بدل ان تماطل في الجواب لعدم اقتناعها انذاك بجدية طلبه؟ يجب ان تضع النقاط على الحروف في اسرع وقت، لكن من الصعب ان تفعل ذلك في حضور شخص ثالث.

عادت الى الواقع لتجد كارلوت تجس نبض تيم باصرار على كشف وضعه الحقيقي، انما كانت تخفي تصميمها تحت ابتسامة متألقة:

«انت صديق سوزان من لندن، اهذا ما كانت تحاول سوزان ان تقوله؟»

فاجاب تيم على الفور:

«يمكنك ان تسميني صديقاً، والواقع، لدي امل في ان اكون اكثر من صديق، لكن ليس بيننا ارتباط رسمي في الوقت الحاضر. هل تفهمين ما

اعني؟».

«بالطبع».

ردت كارلوت بنعومة ووسعت ابتسامتها وكأن النبأ لقي صدى طيباً في نفسها، واضافت تقول بتقطيبة ساحرة:

«لقد عدت لتوي من لندن، واعترف باني احس بعض الكآبة، لكن هذا الخبر الرومانسي انعشني كثيراً! هل تعرفان بعضكما منذ مدة طويلة؟».

فاجاب تيم بحماس:

«اجل، منذ وقت طويل. كنت اهتم بشؤون سوزان وامها بحكم جيرتي لها، وكانت امها ترحب دائماً بآرائي وتوجيهاتي».

حين تستفرد كارلوت بتيم قالت سو لنفسها، ستطرح عليه كل الاسئلة التي تريد، ولكن كيف يمكنها ان تفعل اي شيء يحول دون هذا اللقاء وليس هناك شيء معين تريد اخفاءه؟ ان تيم انسان متسرع، وقد يكون خطأه الوحيد انه اوجد وضعاً بعيداً عن الحقيقة نتيجة لهذا التسرع، وليس لانه لئيم بطبعه، بل هو انسان كريم النفس في اعماقه. انها تشاركه الذنب على الارجح، لكونها اخطأت الاعتقاد بأن غيابها عنه سيجعله ينساها تلقائياً. اما الآن، وقد جاء فعلاً، فكيف يمكنها ان تطلب اليه الرحيل؟

ازاحت خصلة شعر عن جبينها والحيرة تعذبها. كانت كارلوت ما تزال تبتسم وتبدو راضية تماماً عن نفسها. وبالرغم من تصرفها الودي، خامر سو شك غريزي في صدق تلك الابتسامة، وازدادت ارتياباً حين قالت كارلوت في رقة:

«يجب ان نذهب جميعاً لنسهر في الفندق. ميريك يعرف مواعيد سهراته الراقصة وحين نذهب، قد يكون لدينا شيء رسمي نحتفل به، والله اعلم!».

ماذا تقصد؟ رمشت سو واتسعت عيناها حين احست خيبة تغمر قلبها. هل كانت كارلوت تلمح الى وجود علاقة معينة بينها وبين ميريك، وليس الى علاقتها هي بتيم؟ اجابتها في حذر:

«سأفكر في الأمر، لانه يتوقف على صحة جون بالدرجة الأولى».

فاومأت كارلوت موافقة وقالت:

«ذكرتني بجون، فأنا جئت في الأساس لأراه. كيف حاله؟».

انتقال الحديث الى موضوع جون اشعر سو الأمان، فطمأنتها الى صحته واردفت بلا تفكير:

«كان يتحدث الى ميريك منذ قليل».

سرها الخبر فتألقت شفتاها الحمراوان بابتسامة شامتة، وقالت وهي تستعد للخروج:

«تواعدت وميريك على الذهاب الى بيرث هذا الصباح حيث سيحضر مزاداً علنياً للماشية. ساعود معه مساء للعشاء هنا. فالى اللقاء».

لوحت بيدها مودعة فنظرا اليها بصمت وهي تخرج وقال تيم في اعجاب حين سمعاها تفتح باب جون وتغلقه:

«انها تفكر بعقلها على الاقل، وتعرف من اين تؤكل الكتف، ام تراها بدأت بالفعل تأكل كتفاً ما؟».

«لا اريدك ان تتكلم هكذا يا تيم. انا اكيدة من ان كارلوت لا تخفي دوافع مريبة، وانها تزورنا من باب المودة فحسب. وفي الصيف، هي تساعدنا في ادارة مخيم العربات ولذا نراها كثيراً».

«مخيم العربات؟ من يملك هذا المخيم، اذا جاز لي السؤال؟».

«يجوز لك ان تسأل، لكن ليس بهذه النبرة! انه يقع ضمن الاملاك، وبالتالي اعتقد انه يخصنا. لكنه قانوني مئة بالمئة وله مكتب متكامل الشروط ويقدم تسهيلات عديدة. لذا لا موجب لان تشك في شرعيته».

فقاطعها محتداً وبشيء من الدفاع عن الكرامة:

«اسكتي يا سو. انا لم ألمح الى شيء من هذا، بل اردت فقط ان الفتك الى قيمة هذا المخيم كعقار وكمورد للربح المادي اذا ادير بطريقة صحيحة، وانت تقولين ان ادارته متقنة ومنظمة».

«في مكان مثل غلينرودن، تتوازن المداخيل مع بعضها البعض. فمخيم العربات اضافة الى مشاريع اخرى، كمطاردة الغزلان مثلاً، يجب ان يعوض مادياً عن انعدام الربح من اقسام الأرض الاخرى».

«يستثمرون الغزلان ايضاً؟ اذن بوسعك ان ترثي املاكاً قيمة يا سوزان. هل زرت الاملاك كلها؟ الديك فكرة عن مساحاتها؟».

هزت رأسها صامتة، وتمنت لو تجد الجرأة على مطالبة تيم بعدم التدخل

في شؤون الآخرين! من الغباء ان تسمح له باقلاقها حتى العمق، انما كيف توقفه عند حده من دون ان تجرح كرامته؟ ربما كان من الحكمة ان تلجأ الى بعض الدبلوماسية... قالت:

«اتذكر اني كنت مع ميريك في الخارج يوم وصولك؟ وقتها شاركت في مطاردة الغزلان».

«اليس غريباً ان تكون تلك اول زيارة لك للاملاك، وقد مضى شهران على وجودك هنا؟».

«ليس تماماً.

اذا كان ثمة تقصير من جانبي، فسببه خوفي على ابي يا تيم. انه معتل الصحة، ولم اشأ ان افعل اي شيء يضايقه، او يضايق ميريك فيندلي».

فقال بقسوة ونزق:

«اني افهم جيداً مراعاتك لصحة ابيك الذي احببته كثيراً، انما بالنسبة الى السيد فيندلي، فالمفروض منك ان تثبتي شخصيتك امامه والا داس على مصالحك وطيرها كما الغبار!».

شهقت معترضة فتجاهل ذلك واردف:

«ألم تقل ابنة عمك كارلوت، انها ستذهب اليوم مع العزيز فيندلي الى بيرث؟ اذن، ما رأيك ان نستغل فترة غيابهما ونلقي نظرة على المكان؟ احصلي فقط على خريطة، ولا بد ان جون لديه واحدة في مكان ما، وانا سأتكفل بالباقي. باستطاعتنا التوصل الى الاعاجيب اذا استعنا بخريطة واضحة وبشيء من الدهاء».

لم تعجبها نبرة صوته. فالتفتت اليه قائلة:

«لكني... لا احب ان افعل كل هذا خفية عن والدي».

«اننا لا نقصد اي ضرر، ولا موجب لأن يعلم احد بالأمر اذا كان الكتمان يريحك اكثر. من ناحية اخرى، لماذا لا تستمتعين انت ايضاً بالخروج مثلما سيفعلان؟».

ادركت انه كان يتقصد تحريضها على مجاراته، لكنها حين وافقت اخيراً على اقتراحه، فعلت ذلك بدافع غيرتها من كون ميريك وكارلوت سيقضيان النهار معاً، وليس بدافع الافكار المستحوذة على ذهن تيم. احست، في لحظة صدق مع نفسها، بأنها لن تحتمل تخيلاتها الغيورة اذا

امضت الوقت هنا في انتظار عودتها. من ناحية اخرى، ليس هناك ثمة ضرر من زيارة الاملاك، وتيم كان مصيباً على الارجح من الوجهة المنطقية.

لكن حين دخلت غرفة جون، وجدت المهمة اصعب مما تصورت، وبخاصة اضطرارها للمراوغة بدل استعمال الصراحة. قالت:

«اود ان اعرف تيم الى المنطقة. ولكي يسهل علينا التجوال، جئت اسألك اذا كانت لديك خريطة لها تبين حدود غلينرودن وتقسيماتها».

فلاح تعبير غريب على وجهه المتعب، وبرر مزاجه المعكر بأن كارلوت ارهقته بثرثرتها، وبدا رافضاً لمزيد من الكلام. راعت سو وضعه فلم تلح في السؤال، وقررت ان تخرج مع تيم لفترة قصيرة ليستريح جون خلالها. لكن كان واضحاً انه تضايق من طلبها للخريطة، ولما عرضت ان تبقى معه، عاكس هذه الفكرة وقال بصوت مشاكس:

«كان من الافضل لك لو ذهبت مع كارلوت الى بيرث حيث كنت ستجدين اشياء جديدة باهتمامك اكثر مما ستجدين هنا. اعتقد ان ميريك يحتفظ بمعظم الخرائط في مكتبه. لكن ابحثي في الخزانة تلك، فلعلك تجدين واحدة صغيرة».

وجدت الخريطة ونظرت اليها بخيبة، اذ كانت باهتة وشبه مهترئة، لن تستفيد منها كثيراً.

فقالت:

«اعتقد في امكاني اخذ واحدة من المكتب».

ففاجأها جون برده الحاد:

«لا، لا تفعلي ذلك! اياك ان تذهبي الى هناك يا سوزان. اقصد ليس بدون ان تستأذني ميريك. لا اريدك ان تبعثري الأوراق وتعذبيه بترتيبها في ما بعد».

«اعدك بالا اقترب من المكتب. لكن هل لك ان توضح لي الحدود على هذه الخريطة؟».

«اذهبي حيثما تريدين انما اتركيني الآن يا سوزان. ارجوك! هناك اماكن كثيرة يمكنك ارتيادها من دون ان تضيعي طريقك فيها. ميريك اخذك الى الجبل، لكني لا انصحك بالذهاب اليه اليوم، لانك اذا تهت فيه،

ستجدين ان تيم ماسون ليس ميريك فيندلي».

احست سو ببعض المهانة وانصرفت على عجل. لماذا يتردد ابوها دائماً في شرح اي شيء عن غلينرودن؟ لا تذكر انها اثقلت عليه مرة بفضولها، واذا كانت الاملاك مرهونة كلها، او كان هناك اي شيء خطير من هذا النوع، فما عليه الا ان يخبرها وينتهي الأمر، فهناك املاك كثيرة تمر في مصاعب وليس في ذلك ما يخجل. ليته يخبرها الحقيقة لتتأكد على الاقل من ان كتمانه ليس له علاقة بميريك. اجتاحتها موجة حزن، وصعدت لتأتي بمعطفها.

ناولت الخريطة لتيم وقالت بعدما خرجا من البيت:

«سنأخذ سيارتي... ما زلت احتفظ بها لاني افكر في ايجاد عمل وسأحتاجها اذ ذاك».

لن تخبره انها في حاجة ماسة الى عمل لتحصل على شيء من المال، لأنه سيحسبها تمزح ويضحك للنكتة!

لكن تيم كان لحسن الحظ مشغولاً بتفحص الخريطة فلم يلق بالاً الى ما كانت تقول، او بالاحرى لم يسمعها بتاتاً، بل كان يبتسم راضياً مسروراً، وقد استطاع على ما يبدو، ان يتفاهم مع الخريطة برغم اهترائها وعمرها العتيق! وهتف وهو يدق الخطوط الباهتة باصبعه:

«يجدر بك ان تهتمي بهذه الاراضي بدل ان تبحثي عن عمل! فأبوك يملك مساحات شاسعة بموجب هذه الخريطة، ولا عجب اذن، ان يحجب السيد فيندلي هذه المعلومات عنك».

«تيم، ارجوك!».

«حسناً. اهدأي».

لم يعتذر، ولم يبد عليه اي ندم. بل قال رافعاً حاجبيه:

«تعلمين ان امك اعتمدت علي في رعاية مصالحك، وانا احاول فقط ان الفتك الى امر او اثنين. ان اباك في حالة صحية سيئة، وليس مستحيلاً او مستغرباً ان يستغل الآخرون وضع رجل في مثل حالته».

التزمت الصمت المطبق، فيكفيها عذاباً ان تفكر في الحقائق ذاتها ودونما حاجة لان تصوغها في كلمات... كانا يعبران مخاضة النهر في طريقهما الى الخليج، حين اصر تيم على زيارة مخيم العربات.

قال متجاهلاً وجهها المتجهم وهو يبتسم بعذوبة:

«سألقي عليه نظرة سريعة فحسب، من يدري، لعلني اقصده يوماً لاقضي فيه اجازتي».

توقفت، وراقبته يهبط من السيارة ويتقدم متجولاً بين العربات. ثم شرد بصرها الى الخليج حيث كانت ريح خفيفة تموج سطح الماء، وحيث شجر الشربين والصنوبر يحاذي الشاطىء الرملي الزاهي تحت السماء الصافية. . . الآن وقد توقف المطر، سيرسل الفضاء صقيعاً، كنكهة اولى للشتاء. وتساءلت كيف سيكون الشتاء في جبال اسكتلندا؟ فتخيلت الامسيات الطويلة المظلمة، والمواقد الحميمة، والعزلة التي لا بد ان تكون جزءاً من هذا الشتاء. قد يظل وضعها غير محدد في غلينرودن، غير ان الصورة التي تخيلتها ستعوضها كل مشاعر النقص تلك. الشتاء هنا يعني ميريك وجون والسيدة لينوكس، تيم سيكون قد رحل، اما كارلوت، فرفضت التفكير فيها.

عاد تيم بمعنويات عالية من جولته في المخيم وبقي منشرحاً طوال اليوم. ولدهشتها، اثبت انه قارىء خرائط من الطراز الأول واستطاع القيام بدور الدليل، في اوعر الأماكن، بكفاءة عظيمة. ولولا ذلك القلق المبهم في خلفية ذهنها لاستطاعت ان تستمتع كلياً.

في احد الأماكن، اصبحت الطريق مجرد درب وعر، يمر صعوداً في مضيق صخري وعلى حافة هوة عميقة.

انبهرت سو وحبست انفاسها، فعلق تيم على شرودها في جفاف:

«ركزي بصرك على الطريق امامك. سنصل القمة قريباً، انما لا اريد ان اسقط في القعر».

كان المشهد من على القمة يستحق عناء الرحلة الخطرة. فخلف الخليج والصخور، واجهتها الجبال وكانت رائعة على صدر الأفق. تمعنت فيها سو من بعيد، وخيل اليها انها استطاعت تمييز الجبل الذي صعدته مع ميريك بحثاً عن الايل! حدثت تيم عن رحلتها الرائعة تلك وتساءلت لماذا حدجها بنظرة هازئة.

سارا عائدين الى السيارة، وقال تيم وهو يضع ذراعه على كتفها في مودة:

«سنتقدم قليلاً، ثم ننزل الى الطريق العام ومنه الى غلينرودن. هل

استمتعت بنهارك؟».

«اذا كنت تقصد الجولة فقد استمتعت بها، ولولا وجودك معي لضيعت الطريق».

«هذا ما كنت احاول افهامك اياه اعرف اننا لا نتفق على امور كثيرة، ولكن دعيني، على الاقل، ارشدك الى بعضها، فانا لا اريدك ان تصابي بضرر».

«اصاب بضرر؟».

صفق باب السيارة وكان صبره قد عيل من عنادها وعدم تعاونها، وقال:

«اتساءل احياناً يا سوزان، عما اذا كنت تتعمدين الكتمان. لن يفيدك ابداً ان تضعي ثقتك الكاملة في الشخص غير الجدير بالثقة».

«حسناً، هذا ما يقضي به العقل ولدي منه ما يكفي!».

كانت تحاول ابقاء الحديث في مجرى عام، لكنها احست بفشلها حين سأل فجأة:

«هل اصيب جون بالمرض منذ زمن طويل؟».

«نعم، انه مريض منذ بضعة سنوات على ما اعتقد، هكذا اخبرني الدكتور ماكروبرتس. . . عندما وصلت، كان تعرض الى التواء في كاحله، وفي الليلة ذاتها، اصيب بنوبة قلبية حادة، ومن حينها لم يستعد عافيته كما يجب. وقال الدكتور ان التواء كاحله وظهوري المفاجىء قد يكونان ساهما في زيادة مرضه».

«الدكتور ماكروبرتس هذا، لا يعرف اللف والدوران!».

«صحيح يا تيم، لكني طرحت عليه السؤال بنفسي فأعطاني جواباً صادقاً. في كل حال لم تكن هناك فائدة من تجاهل الحقيقة، واحس باني كنت مسؤولة جزئياً عن مرضه. لهذا لا يجب ان اسبب له مزيداً من القلق، وهذه النقطة تهمني جداً».

«فهمت، كنت دائماً تضعين اللوم على نفسك في كل شيء! غير اني توقعت، في ضوء الظروف الحاضرة، ان تجدي سهولة في الاستقرار، اذا حددت الامور ووضحتها».

«كيف افعل ذلك؟».

«لو كنت مكانك، لقمت بمحاولة محددة لتنظيم الوضع بدون ان ازعج

جون. فلا بد ان هناك عقد عمل يختص بميريك فيندلي، قد تجدينه في مكتبه. واذا استطعت ايجاده، فقد تعرفين منه حقيقة الأوضاع. هذه املاك ضخمة ويجدر بك ان تتحسسي بعض المسؤولية ما دام ابوك مريضاً الى هذا الحد».

كان ميريك قد خابر البيت في غيابها، واعلم السيدة لينوكس انه سيبقى مع كارلوت في بيرث، لتناول العشاء مع بعض الاصدقاء، وان هؤلاء سيوصلونه الى البيت في سيارتهم، ليوفروا على كارلوت مشقة ايصاله بنفسها.

واضافت السيدة لينوكس الى اخبارها قولها:

«لم اكن، لحسن الحظ، قد باشرت تحضير عشاء كبير، لكن السيد فيندلي يراعي دائماً مشاعر الآخرين ويخفف عنهم التعب ما امكن».

ليس دائماً هو هكذا، غمغمت سو وهي تصعد لتنام. فبعد عشاء خفيف قررت النوم باكراً، وتركت تيم يستمع الى الراديو اذ لا يوجد تلفزيون في غلينرودن. وعادت تفكر في ميريك الذي كان يغدق عليها الحب ساعة ثم يتجنب التحدث اليها لأيام وايام. كان يثير مشاعرها الى حد القلق ثم يتوقع منها ان تستمر هكذا، وكأن شيئاً لم يكن! ربما بالنسبة اليه لم يحدث شيء على الاطلاق! هكذا الرجال دائماً! هزت كتفيها بلا اكتراث، فيما قلبها يتوجع. كم كانت غبية حين تخيلت انها تستطيع قضاء الشتاء هنا... انها حتماً ستموت في خلاله! يجب ان تسأل كارلوت عن الوظيفة الشاغرة التي ذكرتها لها، فقد تجد من الضروري ان تتغيب عن البيت لترتاح قليلاً من عذابها.

بعد بضعة ايام، فاجأها ميريك بالقول، انه حجز طاولة لاربعة اشخاص لليلة التالية، واضاف موضحاً:

«هناك فندق قرب بلدة بتلوخري ارجو ان يعجبك، فهو يقيم كل سهرة سبت حفلة منوعات بهيجة».

فأشرق وجه تيم، ووافق بصوت متواضع هذه المرة:

«سيكون ذلك تغييراً للروتين، ويسعدنا انا وسوزان ان نذهب».

وبالرغم من ان ميريك وجه الكلام اليها، الا ان تيم سلم جدلاً بان الدعوة تشمله ايضاً. ضايقتها الطريقة التي حشر بها اسمها في جوابه، ومع

ذلك ما استطاعت كتم ابتسامتها، وهي ترقبه يلتهم البيض المقلي بلذة، وقد ازالت وجومه بهجة السهرة المنتظرة. انه لم يدرك بعد ان مسيرة الحياة في غلينرودن كانت بطيئة جداً بالنسبة اليه، فمع الوقت سيضجره الهدوء الى حد كبير، لانه، بخلافها، لا ينسجم الا مع حياة المدينة الصاخبة.

في الليلة الموعودة، وصلت كارلوت متأخرة، فغادروا البيت بعد السادسة. كان الغروب الخريفي بدأ ينتشر، ومع ذلك، تمتعت سو بالمشاهد الرائعة على الطريق.

استغربت ان يصلوا بسرعة الى بتلوخري التي يرتادها السياح صيفاً، والواقعة في وادي تاميل المزين بالغابات البديعة. الى الشرق كانت الجبال التي بدت كظلال بعيدة في عتمة الغروب، وفي وسط البلدة كان يوجد سد كلوني الشهير الذي يشكل قسماً من المشروع الكهربائي المائي المتضمن غرف مراقبة وقنوات للاسماك.

وقال ميريك مخاطباً سو، وهم يتقدمون في شوارع البلدة:

«يجب ان تأتي بتيم للتفرج على بتلوخري قبل ان يعود الى لندن، فهنا ستجدان اشياء مثيرة للاهتمام اكثر من تلك التي رأيتماها في جولتكما في غلينرودن».

كيف عرف؟ حدقت بخيبة الى شعره الأسود وتساءلت... لا هي ولا تيم، ذكرا الأمر لأحد، كذلك لم يشاهدا احداً خلال جولتهما ليخبره ذلك. وحين اعادت الخريطة الى جون، لم يكلمها بتاتاً، ولا سألها حتى كيف قضيا نهارهما... عبق وجهها وهي تحاول ان تتصور كيفية وصوله الى الخبر. هل هناك اي شيء يجري في غلينرودن ولا يعرف بحدوثه في نهاية المطاف؟

ضحكت كارلوت كاسرة الصمت، الا انها زادت الطين بلة بقولها:

«هل ستزورنا ثانية في عيد الميلاد يا سيد ماسون؟ انك ستستمتع كثيراً بالزيارة، وانا اكيدة من ان سوزان ستستوحش جداً في غيابك».

وقبل ان يجيب تيم، انعطف ميريك بالسيارة فجأة، وعبر بوابة حديدية عالية ثم توقف امام فندق ضخم، وقال وكأنه توقع سؤال سو:

«انه يفتح على مدار السنة، انما يعتمد في الشتاء على الزبائن المحليين».

نزلوا من السيارة وتبعوه الى الداخل، حيث توجهت سو وكارلوت لتسليم معطفيهما في غرفة السيدات وعادتا الى حيث كان الرجلان في قاعة

الاستراحة. كان ميريك رائعاً كالعادة في تنورته، اما طوله وعرض كتفيه فقد جعلا سائر الرجال في الغرفة يبدون تافهين، وتيم من الجملة.

توجهوا الى قاعة الطعام واخذوا اماكنهم، وراحت سو تتأمل جمال القاعة، وبخاصة سجادة التارتان الكبيرة، والنوافذ العريضة التي تطل في النهارات وفي اشهر الصيف على مشاهد رائعة من الريف الاسكتلندي.

كانت تجلس بين تيم وميريك، وطوال فترة تناول الطعام كانت تحس وجوده بكل جزء من كيانها... ومراراً انجذبت عيناها الى محياه الوسيم واستقرتا عليه لا ارادياً. كانت تلبس التنورة السوداء نفسها، انما هذه المرة مع بلوزة من الحرير الأسود ذات كمين طويلين وياقة مستديرة تظهر عنقها البض وكتفيها. اما شعرها الكثيف فقد سرحته بحيث بدا كغيمة شقراء تموج حول وجهها وكتفيها وتنسكب خصلات منه على وجنتيها.

جاذبيتها لم تغب عن ميريك، وانعكس اعجابه في الق عينيه حين استقرتا على قوامها الأهيف، انما لم يعبر عنه بأي كلام، وتمنت في حرقة لو يفعل! تيم من جهته، اطرى جاذبيتها علناً لكن كلماته لم تبلسم قلبها المجروح.

توجهوا بعد العشاء الى قاعة الرقص، وتناولوا القهوة الى احدى الموائد الصغيرة المحيطة بحلبة الرقص. بدأ العرض بوصلة من موسيقى القرب، اداها ارتجالاً رجل يرتدي الثياب الفولكلورية وتبعها رقص على ايقاع فرقة موسيقية جبلية. وبعد ذلك، وجدت سو نفسها تدور راقصة بين ذراعي ميريك، الذي غمغم قائلاً:

«اشكرك على قبولك الرقص معي يا آنسة فريزر، واعجب لانك لا تخشين على اصابع قدميك».

فردت مبتسمة وضاربة على الوتر ذاته:

«لا داعي للاعتذار يا سيد فيندلي. واذا دست على اصابعي، سأجد طريقة لارد عليك بالمثل».

«الا تفعلين ذلك دائما؟ الا يمثل السيد ماسون طريقتك الاخيرة في ردك علي بالمثل؟».

فتعثرت قدماها وكادت تسقط على صدره وهي تجيب:

«تيم؟ كيف يعقل ذلك؟».

«لأنه لا يرهق نفسه في سبيل ارضائي».

شدد قبضته على خصرها وهو يطوحها معه، وتابع بصوت بارد:

«قد احتمل الوضع حتى نهاية الاسبوع انما لا اضمن ضبط اعصابي الى ابعد من ذلك».

شعرت بمزيج من الخيبة والكدر فعبق وجهها، واجابت في جمود:

«اجازته انتهت، ومن المفروض ان يرحل يوم الاثنين او الثلثاء».

«شرط ان لا يمدد زيارته او تطلبي اليه ان يعود ثانية».

«انت لم تجهد نفسك ايضاً في الترحيب به. اين ذهبت ضيافتكم الجبلية المعروفة عنكم؟».

«انها تميز بين ضيوف وضيوف فلا تستقبل الجميع بالاحضان».

«لكنك لا تقدر ان تقطع اعناق الناس هذه الأيام، لمجرد انك لا تحبهم!».

«صحيح، لم يبق لدينا الا سلاح الكلمات، لكن من المعروف عنا، حتى في هذا العصر، اننا نستعمل شيئاً اقوى منها».

ارتعشت قليلاً تحت سيف بصره... هل تراه يلمح الى رحلتها الجبلية لمطاردة الغزلان؟ ذكريات ذلك اليوم عادت اليها حية، فصبغت جوابها بمسحة يأس غير مقصودة:

«لا أخال ان تيم سيرغب في العودة، حتى لو طلبت انت اليه ذلك»!

«لا تخافي، فلن ادعوه».

ثم قست عيناه فتأكد لها انه اخذ كلامها على محمل اخر. وتابع يقول:

«انه لا يناسبك يا سو، ويختلف عنك كثيراً بعدم صراحته واخلاصه. لذا تقتضي مصلحتك ان تسارعي الى نسيان امره».

«يا لك من...».

استبد بها الغضب فحاولت الافلات من بين ذراعيه... لا تنكر انها هي نفسها ما اكترثت كثيراً لتيم، فمن حين زار امها لأول مرة، وكان وقتها شاباً دمثاً من مكتب الضرائب، ثم صار يتردد عليها بحكم العمل، اصبح ما يشبه العادة في حياتها. ولكنها برغم كل شيء، مدينة له ببعض الولاء ويجب ان تدافع عن صداقاتها... قالت بصوت لاهث:

«لي ملء الحق في ان ادعوه هو او اياً من اصدقائي الى غلينرودن ساعة

اشياء، وليس لك ان تمنعني!».

«ما عليك الا ان تحاولي لتري النتائج!».

ابتسم هازئاً بعنفوانها، ثم شدها اليه واخمد مقاومتها حين خفتت الاضواء مع اقتراب رقصة الفالس على النهاية. احست نفسها تتهدل على صدره، وتجردت من كل سلاح لما همس في اذنها وانفاسه تتسارع:

«كم يلذ لي ان اتشاجر معك يا حلوتي سو، واعرف من منا سينتصر».

انتهى الفالس وعادت الأضواء، فتركته ولجأت كالعمياء الى مقعدها فيما احسته يسير وراءها متمهلاً. وجدت تيم مستغرقاً في الحديث مع كارلوت، وهي تلقي يدها على ذراعه وتصغي اليه بكل حواسها. تذكرت سو بقلق انها خشيت مرة من امكانية استفراد كارلوت بتيم، واستطاعت الآن ان تتصور نوع الاسئلة التي تطرحها عليه كارلوت، وحيث لا حدود لفضولها ولهفتها الى جمع المعلومات عن سو.

لدى وصولها نهضت كارلوت واقفة، وسألت بشيء من السخرية وهي تنقل بصرها بين وجه سو المتورد وحيث توقف ميريك ليتكلم مع رجل آخر:

«الم تستمتعي بالرقص؟ يبدو انك تهربين من شيء ما».

فردت باختصار:

«ما هربت من اي شيء».

ثم تنفست سو بعمق وتابعت تتحداها بصوت بليد:

«انك تحبين اعطاء الانطباعات المغايرة للحقيقة».

فقالت كارلوت:

«انت التي اعطيت هذا الانطباع حين عدت راكضة وكأن حيواناً مفترساً يلاحقك!».

ثم غيرت الموضوع وقالت في هدوء تام:

«تبادلت وتيم حديثاً ممتعاً، وقد اخبرني شيئاً عن حياتك الماضية. في اعتقاده انك جئت الى غلينرودن لغاية معينة. يجب ان اروي لميريك بعض هذا الحديث».

ثم سارت الى حيث ميريك لتشاركه الرقصة التالية، فنظرت اليها سو بحيرة وذهول... انها عدوة لدودة تحت قناعها، وكان من الغباء ان

تنخدع بها وتطلب مساعدتها على ايجاد عمل لها!

استمرت السهرة تتخللها رقصات جبلية حتى حان وقت الانصراف. لم يشارك تيم في اية رقصة، بعكس ميريك الذي رقص كثيراً والى حد ادهش سو. لم يدعها ثانية الى الحلبة، لكنها انضمت الى مجموعة اخرى كانت ترقص جماعياً، ولم تحس اي تصور او ارتباك لانها كانت تلقت دروساً مسائية في الرقص الاسكتلندي الفولكلوري، كجزء من منهج التدريب على اللياقة البدنية في الكلية، ولذا اتقنت التعلم وساعدها على ذلك خفة حركاتها. انضمت الى المجموعة في حماسة، ورقصت في اتقان ورشاقة، محاولة اخفاء حنينها الى ذلك الجبلي الوسيم الذي بقي بعيداً عنها طوال الوقت!

لدى عودتهم الى غلينرودن، كانت هي وكارلوت متعبتين فصعدتا فوراً الى غرفتيهما. كارلوت قررت النوم عندهم بسبب تأخر الوقت، وتساءلت سو عما اذا كان ميريك قد تعمد ابقائها لغرض عاطفي في نفسه، بيد انه صعد الى غرفته بعدهما بقليل، وسمعته سو يمر امام بابها المغلق، ثم خيم الصمت الا من الريح التي كانت تهب في الوادي.

ما كانت الريح تؤرقها من قبل، بل تهزج لها لتنام، اما الليلة، فأفكارها القلقة تسهدها، ومعظمها تركز على ميريك والتصق به كما الحمى. لم يعد هناك اي مجال للشك في انها تحبه مع انها تدرك جيداً عذاب الحب من طرف واحد. كانت بعض تصرفاته تزرع فيها آمالاً بسيطة، لكن هذه الآمال هوت الى الأرض هذه الليلة حين تجاهل وجودها معظم السهرة. ارتعشت ورفعت رأسها على الوسادة، معرضة وجهها للهواء البارد الآتي من النافذة. ظلت تتقلب على فراشها حتى تعبت، فكفت عن الحركة، وحاولت ان تتذكر كل كلمة قالها لها خلال رقصتهما الوحيدة معاً... لقد وعظها بالنسبة الى تيم، وحدد لها صلاحيتها في دعوة اصدقائها الى غلينرودن. كان يتكلم وكأنه يملك المكان! وفجأة، انعطفت افكارها الى اتجاه اخر، فاستوت جالسة على فراشها.

قطبت وسط الظلام، وتذكرت ان تيم اقترح عليها ان تفتش مكتب ميريك بحثاً عن اوراق تحدد مركزه الحقيقي. رفضت وقتها الموافقة على عمل كهذا، ولم يأت تيم على ذكره مرة اخرى. انما الآن، وفي هذه اللحظة

بالذات، وجدت الفكرة مغرية، ليس من وجهة نظر تيم المرتزقة بل بالنسبة الى علاقتها بميريك. فمن الناحية العاطفية لن يكون هناك فرق، سواء كان مدير الاملاك ام لم يكن، انما من المحتمل ان يكون شريك ابيها فعلاً، او اسوأ من ذلك، ان يكون مالكاً لنصف غلينرودن او اكثر من نصفها! هذه النقطة لم تخطر لها قبلاً، واحست فجأة بضرورة اطلاعها على الحقيقة.

ازاحت الغطاء وقفزت من الفراش بحركة رشيقة. لم تتوقف لتلبس روبها، وسارت حافية القدمين وفتحت بابها بلطف. لم تجرؤ على اشعال النور لئلا تصطدم بشيء فتحدث صوتاً.

لكن البيت الكبير كان ساكناً، وبرغم ذلك احست العرق ينز من كفيها وهي تنتظر قليلاً لتتأكد من ان الجميع نيام. طمأنها استمرار السكون فعبرت الى الممر واغلقت الباب باحتراس ثم هبطت الدرج ركضاً الى الردهة.

كانت غرفة المكتبة التي حولها ميريك مكتباً تقع في الممر الكائن خلف الدرج، فانسلت في اتجاهه، تستدل اليه بالغريزة والذاكرة، فيما الظلام يلف طريقها عدا ضوء قمري باهت يتسلل من زجاج النافذة في اعلى الجدار، ولا صوت غير ضربات قلبها التي كانت ترن في اذنيها عالية.

توقفت عند باب المكتبة حين احست في داخلها شيئاً يتراجع، لكنها استجمعت شجاعتها ودفعت الباب. عبرته وكادت تتعثر، فوقفت حائرة، وندمت لكونها نسيت الاتيان بمصباح يدوي. كان في المطبخ واحد، الا انها خشيت البحث عنه في الظلام لئلا تسقط غرضاً من الاغراض فتحدث دوياً. اضاءت الزر الكهربائي وانصتت متخوفة ثم تشجعت وقررت المباشرة في البحث لتنتهي بسرعة.

ارتعشت وهي تحدق في الغرفة حولها. لقد زارتها مرة او مرتين من قبل، الأولى عندما جاءت لتأخذ كلب ميريك في نزهة، كارلوت كانت معه آنذاك، والثانية حين حملت رسالة الى ميريك من احد الزوار. تذكرت طاولة المكتب اكثر من سواها، وطفقت تتأمل رفوف الكتب العالية والمقاعد المريحة حول الموقد، ثم ارجعت بصرها الى الطاولة الكبيرة المغطاة بالجلد. وعلى حين غرة، راح قلبها يخفق بسرعة وثقل، واتسعت عيناها في حيرة. كان شيئاً مخيفاً ان تفقد رغبتها في البحث، بل وتجد نفسها عاجزة

عنه! كانت فكرة متسرعة ولدت في لحظة ضغط، وادركت سو، ان المكتب مهما كان فيه من اسرار، فيجب ان تتركها حيث هي. صحيح ان والدها يملك هذا المكتب، لكن التفتيش التجسسي ليس من طبيعتها. ليتها تعقلت وادركت هذا من قبل! وفكرت يائسة، اذا قصدت ميريك هنا، بعد ان يسافر تيم، واستوضحته الحقيقة في صراحة، فلربما اخبرها بنفسه كل ما تود ان تعرفه.

١٠ - حبيبي الى الأبد

في تلك اللحظة من التجلي، والمفروض فيها ان تزود سو بالراحة والاطمئنان، احست نفسها فجأة تتجمد بلا حراك، وادركت غريزياً ان هناك احداً يقف خارج الباب. وحين انفتح في بطء محدثاً صريراً خفيفاً لدى ادارة المقبض، دوى ذلك الصرير كانفجار في اذنيها.

وللحظة، احست نفسها معلقة في فضاء شفاف، فاستدارت واضاء تقاسيمها ذهول صاعق حين وقع بصرها على ميريك... قلصها اليأس فنظرت اليه كالخرساء، وهي تتساءل عما اذا كان ينوي خنقها... شحب وجهها حتى البياض لما سمعته يتمتم في شراسة، وكأن مرآها واقفة قرب الطاولة افلت فيه عقال الغضب.

ولأول مرة منذ عرفته، رأته يعجز عن الكلام لشدة غضبه، ولكونها لم تستطع احتمال الموقف اكثر من ذلك، قالت بكلمات غبية متلعثمة وقلبها الخائف، يدوي كالطبل:

«آسفة... لم اقصد ازعاج احد... لا ادري كيف عرفت اني هنا».

«كنت انوي الاطمئنان على جون، ولما رأيت شيئاً يتحرك، تبعته على الدرج في الظلام لاني لم اشأ ايضاً ان اشعل النور، ولم اعرف هوية اللص المتسلل كالقطة حتى فتحت هذا الباب. حسبته صديقك السيد ماسون، يتحرى في الظلام».

«هل اصاب والدي شيء؟».

فأجابها في خشونة:

«انك تغيرين الموضوع يا سو. والدك ساءت حالته في الأيام الاخيرة

وانت تعرفين ذلك».

«كان يجب ان اطمئن عليه بنفسي فور عودتنا لكني كنت شبه اكيدة بأنه نائم. ثم اني لم اغير الموضوع».

«حقاً؟».

كلمة واحدة قالها، الا انها عوضت عن مجلدات. تقدم خطوة واستمر يرقبها. خيم على الغرفة صمت ثقيل، فخشيت ان يسمع خفقات قلبها المهووسة.

«لم تخبريني ماذا تفعلين في مكتبي؟».

«لم امس مكتبك».

كان ميريك ما يزال يتفحص وجهها، وعاد يلح في قسوة:

«تقولين انك لم تأتي هنا لتفتشي مكتبي، اذن، ماذا تفعلين بالضبط؟ اني اطالبك بتفسير مقنع والا!».

تذكرت سو انه اتهمها مرة بالكذب. كان وقتها يمزح، لكنها لا تريد ان تتيح له الفرصة لان يتهمها جدياً هذه المرة. انما ماذا في وسعها ان تقول؟ تراجعت خطوة الى الوراء وبعيداً عن تلك النظرة الفاتكة بالاعصاب. كيف لها ان تتخلص من هذه الورطة، وهي لا تملك الشجاعة على الاعتراف بالحقيقة؟

امهلها عشر ثوان ثم فقد صبره. وصلها بخطوة واحدة، وطرح يديه على كتفيها ثم شدد قبضتيه من خلال القماش الرقيق قائلاً:

«ماسون هو الذي حرضك على هذا، اليس كذلك؟ انك تحاولين التستر عليه!».

اوجعها سؤاله مثلما أوجعتها يداه... تألمت لأنه أصاب الحقيقة الى حد ما. لكن كيف تستطيع افهامه بأن تورطها لم يكن له اي علاقة باقتراح تيم؟ كان من المستحيل ان تورط تيم لانها لم تكن تنوي اطلاعه على اي شيء من الحقائق التي قد تكتشفها. وهي اذا اعترفت لميريك بأي شيء من هذا، فلن يصدق اطلاقاً بانها قررت في اللحظة الاخيرة ان تعدل عن التفتيش. الوضع لا منطقي الى حد سيبدو فيه التفسير بعيداً جداً عن الحقيقة.

هزت رأسها في عجز، وقالت وهي تحاول التملص من قبضته:

«اقسم لك ان تيم لا يعرف شيئاً عن مجيئي الليلة الى مكتبك».

«هذا التبرير لا يجيبني على سؤالي. انه مراوغة!».

غرز اصابعه في كتفيها غير آبه لمقاومتها الركيكة، فهتفت تقول بارتباك مجنون:

«كان من السخف ان آتي هنا... ربما كنت اسير في نومي، لكني لم احدث اي ضرر وما لامست مكتبك او سرقت منه شيئاً، وانت تتهمني زوراً!».

«انت تضيعين الوقت بهذه الثرثرة، فأنا اكيد من انك لم تكوني تسيرين في نومك مع ان لباسك يناسب هذه الفكرة!».

«اني اكرهك!».

فأمعن في حرقصتها بقوله:

«سنو هل ستخبرينني الحقيقة ام ستجبرينني على سحبها منك عنوة؟».

كان وجهه شاحباً كوجهها وعيناه كالجليد، لكن مشاعرها المكبوتة واعصابها المتوترة اعمت بصيرتها عن اشارات الخطر! اطبقت فمها بتحد، والتزمت الصمت ناظرة اليه في تمرد.

فقال بصوت قاس وكأن الغضب يسحق الكلمات بين اسنانه:

«يبدو انك تتلذذين بممارسة الوقاحة! لقد افهمتك قبل ساعات، وافهمك الآن مرة اخرى ان مصلحتك تقضي بأن تتخلصي من تيم ماسون، والا تخلصت منه، بعون الله، بالنيابة عنك! وتذكري في هذه الحالة، انه سيتعرض لاهانة اكبر!».

ادركت ابعاد هذا التهديد فشهقت وقالت:

«اياك ان تؤذي تيم بكلمة واحدة، اتسمعني؟ اياك ان تفعل، والا رحلت انا قبله».

«هل انت تهددينني يا آنسة فريزر؟».

تقلصت اصابعه على كتفيها متوعدة، ثم هبطت الى ذراعيها تقبض عليها بشدة، وتغمره بموجة رعب.

كيف تقدر ان تجيبه؟ كيف تقدر ان تقول: يجب ان اعرف بالتحديد ما هو مركزك في غلينرودن، لاني سأجن ان لم اعرف؟ لكن مركز ابيها يجب ان يؤخذ ايضا بعين الاعتبار. وفيما استعدت شفتاها للادلاء باعتراف متهور، اهتدت فجأة الى المنطلق السليم. ان جون هو الذي يجب ان يوضح لها كل

شيء، وليس هذا الرجل الذي اعتقلها بوحشية لانها رفضت اعطاءه التفسير الذي طلبه... ما الذي اعماها عن رؤية هذا المنطلق قبل اليوم؟

تلألأت على جبينها حبيبات عرق حين قفزت افكارها عائدة الى تيم! يجب ان تنقذه من ثورة ميريك مهما كان الثمن... فقالت متعثرة:

«لا احب الحاق الاذى بالناس، و خاصة تيم».

«تبدين مصممة على حماية السيد ماسون، فلماذا لا يأتي هذا الفارس ليحميك الآن من الوغد الذي يدير املاك غلينرودن؟ هل تراه جالساً على سريره، في انتظار ان تأتيه بالحقائق المطلوبة؟».

«انت رهيب! رهيب للغاية!».

الهبت الثورة وجهها. وشعرت بأنها تختنق تحت ضغط الغضب. فارخى يديه عنها بفجائية كادت توقعها ارضاً، وقال في عنف:

«اذن، انا رجل بلا اخلاق في نظرك؟».

«شيء من هذا القبيل!».

ردت بجرأة لتصيبه في الصميم، وهي تتراجع من امامه. ابتلعت ريقها وكأنها تبتلع بحصة، وتراجعت اكثر حين ازدادت عيناه ظلمة. اخذ جسمها يرتجف، فادركت انها لن تنسى هذه اللحظة طوال حياتها. كان هناك توتر غريب في الهواء الساري بينهما، ثم انعدم الهواء وحل مكانه احساس متصلب بحلول كارثة حين تقدم ميريك وبسط ذراعيه، ليس ليطلب اليها تفسيراً هذه المرة.

حاولت جاهدة ان تقاوم، ان تهرب، لكنه اخمد محاولاتها باستهزاء وبقوة وحشية. قبض على عنقها ورفع ذقنها عالياً، وغاص بصره في عينيها. احست الدم يدوي في عروقها ويسري كما اللهب. لم يكن الموقف مطابقاً لتلك المرة في الكوخ او لتلك الاخرى على الجبل. فالآن لم يكن يداعبها، ولا كان ايضاً يحبها حين عانقها بقسوة لم يخطر لها ابداً انه قادر عليها. وحاولت بضعف هذه المرة ان تدفعه عنها وان تتعلق بقشة اخيرة من التعقل، الا انه لجم تحركاتها بقوة ذراعيه والصقها به، حتى استكانت اخيراً على صدره. ثم راحت تمرر اصابعها على وجهه وقد انجرفت كلياً في عنف المشاعر التي اجتاحتها.

تأمل ملياً بشرتها الناعمة، وازاح الخصلات الحريرية عن عنقها

وخديها. كان يعتقلها كعصفور، وكأنه يعاقبها وينتقم بقسوة من تمردها.

لم تذكر، بعد ذلك، متى خرج بها من المكتب وهو يحيط خصرها بذراعه، ثم يصعدان الدرج في ضوء القمر، وشعرها يسبح كالغيم في الليل البارد الممطر. ولما فتح باب غرفتها، سمعته يغمغم شيئاً لم تفهمه، وفجأة، القاها على السرير، متخلياً عنها بقسوة، فأحست الصدمة تتحطم وتتناثر كاناء يتكسر.

ولما تكلم، وقع صوته في اذنيها بارداً ومليئاً بالتهكم:

«احياناً يأتي وقت يا سو، تفرض فيه الحقيقة نفسها علينا، وها هي تفرض نفسها على فتاة مثلك، كانت شديدة العمى، والى حد لم تر فيه الا . . . .»

لم يكمل، وفي اقل من لحظة سمعت سو اغلاق الباب بعد رحيله، تاركاً اياها وحيدة مع افكارها المعذبة، وهي تحاول بعجز يائس ان تستوعب مدلول كلامه.

في اليوم التالي بعد الغداء، وكان يوم احد، خرج ميريك ليوصل كارلوت الى بيرث، ولم يعد حتى ساعة متأخرة من الليل. وصباح الاثنين، غادر تيم غلينرودن الى لندن، ويوم الثلثاء بعد الظهر، توفي جون فريزر. اسلم الروح في هدوء اثناء نومه في ساعة القيلولة. ومع ان وفاته كانت شبه متوقعة، غير ان سو ذهلت حين سمعت الخبر من السيدة لينوكس.

لم تكن قد رأت ميريك طيلة النهار، ولا ودت ان تراه، الا بعد ان تتمكن من تحليل مشاعرها نحوه. وفي حال فشلت في ذلك، فلا يمكنها البقاء في غلينرودن كيلا تعرض كرامتها لاذلال كامل. فبعد الذي حصل في المكتب، ما عادت تثق بعواطفها بالنسبة اليه. اجل، كيف يمكنها ان تضع نفسها في مواقف مشابهة وارادتها الضعيفة قد تخونها في اية لحظة. وتذلها امام هذا الرجل الذي يحمل لها كل هذا النفور؟

لقد اقتنعت الآن بوجوب ابتعادها، ومن حسن الحظ انها حصلت على العمل المنشود، فحين جاءت كارلوت لترافق تيم الى محطة بيرث لتودعه، قالت لسو بدفء ومودة:

«اكلمك بخصوص العمل في المدرسة يا عزيزتي، انه لك اذا شئت، لكن عليك اولاً ان تقابلي المدير لتتفقي معه، واذا راق لك ونجحت فيه

فقد تحصلين على مركز افضل».

زارت المدرسة واتفقت مع المدير، ربما لانه لم يستطع ايجاد معلمة سواها، على ان تبدأ العمل في الاسبوع التالي. وبالنسبة الى مكان الاقامة، فاما ان تستأجر غرفة صغيرة في البلدة وتعود الى غلينرودن في نهاية كل اسبوع، او تذهب بسيارتها يومياً الى هناك اذا اصر جون على ذلك، وفي كلا الحالين ستجد المتنفس الذي هي في اشد الحاجة اليه.

لكن قبل ان تجد اقل فرصة لتفاتح جون بالموضوع، رحل عن الدنيا بدون ان تقول له شيئاً. لم تكن لتصدق ان الصدمة ستؤثر عليها الى هذا الحد! ربما ساهمت تراكمات اشياء كثيرة في تعميق حزنها، لكنها تبدو الآن اسوأ حالاً مما كانت عليه يوم فقدت امها. لقد سارع كل من ميريك والسيدة لينوكس الى تأمين راحتها وكأنهما تفهما لوعتها دونما حاجة الى تفسير. اما كارلوت فلم تأت بنفسها واكتفت بارسال برقية تعزية، وقد علقت السيدة لينوكس على تصرف كارلوت قائلة بجفاف:

«انها لا تهتم بالمجيء فوراً للتعزية ولكن ثقي انها ستهتم بحضور الجنازة!».

ميريك كان ودوداً انما بدا منعزلاً تماماً وهو يشرف على كل الاجراءات بكفاءة جدية، كان يستقبل المعزين ويرد على الهاتف باستمرار، مبرهناً صموداً وقوة نادرين كأنها قلعة جبارة. اما حزنه الخاص على فقد جون فلم يبد الا من خلال التوتر الخفيف حول فمه والسواد الكئيب في نظرة عينيه المباشرة.

مرت الأيام التالية على سو وكأنها في حلم غائم. تفكيرها في المستقبل حصرته في وظيفتها التعليمية القريبة، اما غلينرودن فلم تفكر فيها اطلاقاً كجزء من المستقبل. فالنتيجة الطبيعية للأمور، تقضي بأن تؤول الاملاك الى ميريك، مع انها لا تعرف كيف سيصار الى ذلك. اما بالنسبة اليها، فقد استغربت زهدها في امتلاك اي شيء.

لكنها قررت في اليوم الذي تلا الدفن، ان تذهب الى بيرث لتقابل محامي جون وتستشيره قانونياً. كان ميريك قد رتب موعداً معه ليأتي بنفسه الى غلينرودن يوم الاثنين، لكنها ستكون غائبة في عملها انذاك. شعرت بالذنب لانها لم تطلع ميريك على تسلمها الوظيفة وكانت تنوي اخباره، انما

لم تجد الفرصة المناسبة. لذا يجب ان تجد الجرأة لاعلامه في خلال نهاية الاسبوع، ولكن من الضروري ان ترى المحامي اولاً.

اخذت منه موعدا للساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة، وبعد وجبة غداء خفيفة توجهت الى بيرث، وكان ميريك خارج المنزل. وبالرغم من فارق الزمن والظروف، ذكرتها رحلتها هذه، بذلك اليوم الصيفي الذي قابلت فيه محامي امها لتطلعه على الرسالة التي كانت السبب في مجيئها الى اسكتلندا، وشردت افكارها تتجول هنا وهناك، وهي تقود سيارتها بسرعة في اتجاه بيرث. كان من واجبها ربما ان تعلم تيم بوفاة ابيها، ومن باب اللياقة على الاقل، لكنها في الحقيقة، نسيته تماماً منذ ان عاد الى لندن، بل انه غاب عن ذاكرتها حالما استقل القطار من المحطة، وصار خيالاً بعيداً بالنسبة اليها. ميريك وحده كان يحتل افكارها وقلبها، انما بعد فقدانها الموجع لجون ما استطاع احد، حتى ميريك، ان يذيب الجمود الذي يحاصر قلبها.

وحين التقت المحامي لم تجد في كلامه اية راحة. وقد بدأ حديثه قائلاً:

«تعرفين بالطبع، ان اباك فقد ملكيته لغليتروودن حين باعها منذ عشر سنوات؟ كان سعيد الحظ بعثوره على شار مثل ميريك فيندلي... لكن هذا حدث في الماضي البعيد واصبح اليوم نسياً منسياً».

نظرت اليه في ذهول، وحمدت الله على انه لم يلحظ ارتباكها لانشغاله في تفحص بعض الأوراق... اذن ميريك هو مالك غليتروودن وليس جون، وهذا المحامي سلم جدلاً بانها تعرف الحقيقة! اجتاحها اليأس وهي تتساءل لماذا اخفى جون هذا الأمر الخطير عنها؟ ستذل نفسها اذا اعترفت للمحامي بجهلها، فكيف تحصل اذن على المعلومات التفصيلية؟ لم تستطع حتى ان تستوضحه السبب الاساسي الذي حمل اباها على بيع الاملاك، لكونه يتوقع معرفتها به ايضاً.

ومضى الرجل يتكلم، ولو بتحفظ، فأخبرها انه يعرف اباها منذ سنوات بعيدة، وكذلك تعرف الى امها بعد زواجها من جون. وقال حين شيعها الى الباب مودعاً:

«انت تشبهين جدتك كثيراً يا عزيزتي. وقد كانت سيدة بكل معنى الكلمة».

ولما انغلق الباب خلفها بلطف، ادركت سو، انه لم يضف الى معلوماتها شيئاً، عدا ذلك الخبر الذي هزها في الصميم. قال شيئاً اخر يتعلق بتركة صغيرة لا تذكر تفاصيله، وهكذا خرجت كما جاءت تقريباً!

لم تتذكر، بعد ذلك، كيف امضت فترة بعد الظهر، لقد تجولت لفترة بلا هدف معين، ثم دخلت مقهى صغيراً وطلبت شاياً وحلوى، انما لم تذكر كيف اكلت ولا كيف غادرت المكان بعدما دفعت الفاتورة. كان الغروب قد اوغل في انتشاره قبل ان تجد طريقها في العودة الى غليتروودن، وقررت الا تفاتح ميريك بما عرفته عن حقيقة الملكية، وان تنتظر حتى صباح الاثنين، ولدى مغادرتها البيت الى مقرها الجديد. لا موجب لان يكون الحديث طويلاً، بل مجرد اعتذار موجز، كلمة وداع وعبارة شكر ثم مغادرة سريعة. سينتهي كل شيء في بضع دقائق وبأقل قدر من الاحراج لكليهما. فالوقت سيكون اضيق من ان يتيح المجال لأي تفسير. ومهما كان الثمن، قالت لنفسها، فيجب ان تتصرف بمنتهى الاختصار، لأن وضعها العاطفي الحالي، الشديد الانفعال، قد يجعلها تقول اشياء تندم عليها في ما بعد.

لدى عودتها مساء سيكون ميريك خارج البيت، وفرحت للفكرة.

الا انها حين فتحت الباب واغلقته خلفها باصابعها المتخدرة من شدة البرد، احست بوجود ميريك، بالرغم من كل احتياطاتها... كان يعبر البهو صوبها، بوجه قاتم، وتنورته القديمة الخاصة بالعمل تتأرجح حول ردفيه. وقبل ان تفكر في وسيلة للهرب وصل اليها، ووقف كالمارد فوق رأسها:

«سو!».

هتافه المختصر اجفلها ثم جمدها، حين احتوى ببصره وجهها الشاحب.

«سو! اين كنت بحق السماء؟».

قبض على كتفيها وهزها بنفاد صبر، ناقلاً اليها عنف عواطفه من خلال يديه، مما جعل كل قراراتها الجديدة تتهاوى، ولم تشعر الا ودموعها تنسكب على خديها.

«سو!».

هتف اسمها للمرة الثالثة، لكن صوته هذه المرة، عبر عن لهفة اكبر. وتابع يسأل في الحاح:

«ما بك؟ ماذا حدث؟ ارجوك ان تخبريني!».

ولما صمتت لعجزها عن الجواب، احاط جسمها المرتجف بذراعيه وقال لها:

«احبك يا سو».

سمعته وكأنما صوته يأتي من مكان سحيق، الا انها ما استطاعت استيعاب المضمون الكامل لما كان يقول. . . كان ذهنها يلتصق في غباء بما سمعته في مكتب المحامي، وهي تحاول تحرير احدى يديها، ثم تمسح دموعها بقبضة متقلصة. وهمست في انكسار:

«لماذا لم تخبرني؟».

وفي الحال، تقلصت عضلات جسمه، وتوقفت يده عن تمسيد شعرها ثم ابعدها قليلاً. التحفت عيناه بالغموض وتقلص فمه واجماً حين ادرك ان سؤالها لم تكن له اية علاقة بهمساته التحببية. فاستفسر في اقتضاب:

«اين كنت بالضبط بعد الظهر؟».

هذه المرة، لا سبيل الى التهرب، لكنها ترددت، اذ احست بالذنب لكونها حجبت ثقتها عنه، ثم همست في قنوط يضيق عليها النفس:

«الم تحزر؟».

«وكيف لي ان احزر يا سو؟ السيدة لينوكس قالت انك ذهبت على الارجح الى بيرث، لكن حين تأخرت في الرجوع حسبتك لن تعودي. فبدأت اقلق، بل كدت افقد صوابي من شدة القلق!».

«كان لديك موعد مهم خارج البيت. لم احسب انك هنا».

«لم يكن مهماً. انت اهم من كل المواعيد! لقد اوصلت السيدة لينوكس الى القرية وتوقعت ان اجدك هنا لدى عودتي. لكنك لم تجيبي على سؤالي بعد».

لم يعد هناك مهرب فقالت:

«ذهبت لاقابل محامي والدي، في بيرث».

«فريغوسون؟».

حاولت التغلب على ضعفها وارتباكها وقالت:

«قصدت المحامي لأقف على حقيقة الوضع المتعلق بالاملاك، اذ كان لدي احساس رهيب بأن الأوضاع ليست طبيعية. احياناً كنت احسب انك مجرد مدير مسيطر، وفي احيان اخرى، كانت تنتابني قناعة مخيفة بأني ووالدي كنا نعيش على الاحسان».

«مسكينة يا سو، كنت تتخبطين في الحيرة. . .».

صمت قليلاً ثم تابع يقترح بنبرة حازمة:

«ما رأيك ان نبدأ من البداية، انا وانت؟ هذا ما كان يجب ان نفعله منذ وقت طويل».

«اخبرني المحامي، انك المالك الوحيد لغلينرودن، لكني لم اسأله عن اي شيء اخر لانه بدا واثقاً من معرفتي لكل التفاصيل. لم اجرؤ على الاعتراف له بعكس ذلك، ومن ناحية اخرى، ما عاد يهمني ان اعرف».

«لو اني عرفت بانك ستذهبين اليه، لكنت وفرت عليك كل هذا العذاب يا سو! كنت انوي اطلاعك على كل التفاصيل في عطلة نهاية الاسبوع، وقد تمهلت لامنحك فترة راحة، كنت في حاجة اليها».

«فهمت».

هكذا قالت، بيد انها لم تفهم، وانتظرته بصمت ليتابع حديثه. كان ما يزال يمسك يدها فأحست قلبها يرفرف في حلقها ويكاد يخنقها. لم تجرؤ على التحرك خشية ان يتركها، ولكي تحتفظ بالتالي بذكرى هذه اللحظة الى الابد.

وتابع يقول:

«عندما ابتعت غلينرودن قبل عشرة اعوام، كنت في الخامسة والعشرين من عمري، شاباً قليل الخبرة، لا اعرف اي شيء عن اصول الزراعة في الجبال. كانت غلينرودن معروضة للبيع، فاشتريتها».

فقالت:

«اشتريتها بمنتهى السرعة والبساطة!».

«اجل، هكذا فعلت يا حلوتي سو. اما اكتشفت بعد ان من عادتي الحصول على رغباتي؟».

عاد قلبها يخفق اذ احسته يعاقبها على مقاطعتها لحديثه. وتابع يقول:

«لم تكن الاملاك محصورة الارث، وكان شقيق جون، اي عمك، قد

باع معظم المزارع لانه، كما تناهى الي، كان يصرف اضعاف دخله، فلم تبق الا غلينرودن، وحتى هذه، كانت ترزح تحت رهن ثقيل. جون جارب الخسارات طويلاً يا سو. كان وحيداً بلا عائلة، لم يكن يعلم بوجودك، وخسارته لغلينرودن، اوجعته في الصميم».

توقف قليلاً، فسألته:

«هل طلبت اليه البقاء بنفسك؟».

فأجاب في اسى:

«اجل، فجون كان يعرف كل صغيرة وكبيرة عن ادارة الاملاك الجبلية، فيما كنت انا جاهلاً لأبسط الاشياء، وهكذا وصلنا الى اتفاق».

«اتقصد. . . انك سلمته الادارة؟».

فهز رأسه وقال:

«كلا يا سو، فأنا احب دائماً ان ادير شؤوني بنفسي. لكنه علمني كل ما كان يجب ان اعرفه، وعاش معي هنا. الواقع ان قلة من الناس كانت تعلم هذه الحقيقة».

«ولكن صفقة من هذا النوع، يصعب اخفاؤها. . . ».

«رغبت في الكتمان لاسباب شخصية يا سو. لقد اخبرتك مرة ان والدي توفي في جنوب افريقيا، ولما تزوجت امي ثانية، لم انسجم مع زوجها. . وبما اني كنت في سن شابة لا تهاب المغامرات، فقد اخذت حصتي من الارث وجئت هنا. لكنني لم ارغب في ان يلحق اهلي بي، وكان من المحتمل ان يفعلوا لو انهم علموا بشرائي لغلينرودن، ولذا حاولت كتمان الأمر، و خاصة ان امي من مواليد اسكتلندا».

«وما اخبار العائلة الآن؟».

«ما تزال بألف خير في جنوب افريقيا. لقد ذهبت الى لندن لاقابل زوج امي، فتفاهمنا حول بعض الاسهم التي ما زلت امتلكها في المنجم».

«اذن هذا ما كنت تفعله هناك».

«ماذا حسبتني فعلت خلاف ذلك؟».

«حسبتك كنت مع كارلوت. . . ».

«وانا ظننتك تجوبين لندن طولاً وعرضاً برفقة السيد تيم ماسون! كلانا اخطأ في تفسير الحقيقة يا حبيبتي».

صمت الاثنان للحظة طويلة، قضاها ميريك ساكتاً يتأمل تقاسيمها فيما حاولت هي ان تستوعب ما رواه لها. كانت هناك عدة نقاط تحيرها، فسألت اخيراً هامسة:

«لماذا لم يخبرني ابي هذا، بعد وصولي؟».

«كان يجب ان نخبرك لكن جون توسلني ان لا افعل. ربما لانه كان يخاف في اعماقه ان يفقدك، كما فقد امك من قبل، فتصور، خطأ او صواباً، ان معرفتك للحقيقة قد تحملك على الرحيل، وبعدما مر وقت على وجودك، عزم على اخبارك، لكن الخداع كما العقدة، كلما تشربكت كلما ازدادت صعوبة فكها. وفوق كل هذا، تدهورت صحته بدل ان تتحسن، فصرت اتحاشى الالحاح عليه، رأفة بصحته».

وبالرغم من دفء النار، احست فجأة بالبرد، وسألت في حزن:

«لماذا لم يمنحني ثقته؟ انا ابنته، ولم اكن لاتركه ابداً. . . اما. . . ».

وغاض الدم من وجهها حين تذكرت عملها الجديد. كيف تبرر له سكوتها عنه لغاية الآن؟ لكنها حين اخبرته، لم تستصعب الاعتراف، وكان كل شيء، مع ميريك، صار اسهل. . . وختمت حديثها قائلة:

«كنت انوي التغيب عن البيت خلال الاسبوع، او الذهاب يومياً الى العمل، تبعاً لمشيئته. لقد شعرت بضرورة العمل. لأعيل نفسي».

لا داعي لان تخبر ميريك بانها ما التجأت الى العمل الا لكي تهرب منه.

«لو ان اباك عاش لكان اخبرك مع مرور الوقت. ثم ان الصدمات التي واجهها في حياته قد تكون خيبت اماله الى حد جعله لا يثق بالناس في سهولة، وبعد مجيئك، بدا اكثر سعادة، من عدة نواح، الا ان مرضه، ثم موته، لم يمهلاه ليثبت ذلك».

فقالت حزينة شاردة:

«كلانا لم يجد الوقت الكافي لتفهم الآخر، فانا لم ادرك الا بعد موته، اني كنت بدأت احبه كثيراً. . . قد يعزيني بعض الشيء ان مجيئي اسعده، وفي اعتقادي انه كان يثق بك تماماً».

«اجل، فالعشر سنوات وقت طويل يا سو، وكنا في خلالها نتشارك العيش والعمل في انسجام تام. كان يعزني كما لو كنت ابناً له، وانا بدوري احببته على مر الزمن. كم عانيت هذه السنة وانا ارى صحته تتدهور بهذه

السرعة».
ظل يتأملها لبرهة صامتاً، ثم تقدم منها لينزع معطفها، وحين ارتجفت، سحبه عن كتفيها، وطفق يتفحص رقة قماشه واجماً، ثم قال:
«اعتقد انك كنت في حاجة الى المال لتبتاعي معطفاً اسمك؟ لقد طلبت من جون ان يتأكد من وضعك المادي، والظاهر انه لم يجد الوقت ايضاً لذلك».
فهزت رأسها لتتجنب رداً مباشراً، وفاجأت نفسها حين اجابت على استفساره بسؤال اندفاعي ارعن:
«اما رغبت مرة في الزواج؟».
فرد في رقة:
«اجل، عدة مرات».
هو يحب كارلوت اذن! شخصت اليه بحدقتين متسعتين، وراح التورد يحبو في وجنتيها. عاد اليها الدوار، وبالكاد احسته ينهض ثم يعود ويضع بين اصابعها المرتجفة فنجاناً، ويأمرها بأن تشربه.
قطب جبينه وقال:
«كان يجب ان اسقيك الشاي فور وصولك. لقد جهزته لك خصيصاً، لكني نسيت امره تماماً لانشغالي بك. . . هيا، اجرعيه يا شاطرة، لاني اريد ان اريك شيئاً طريفاً».
احتست الشاي بعصبية، فعاد لونها المفقود، لكنها استمرت ترمقه خائفة.
اخرج محفظته من جيبه، وسحب منها تمثالاً صغيراً جداً، وطفق يحدق اليه بانسحار كمراهق يحدق الى نجمته السينمائية المفضلة، ثم وضعه امامها على الطاولة الصغيرة. كان بيضاوي الشكل يمثل فتاة شابة في فستان مزهر. كان شعرها الاشقر معقوداً الى خلف بما يشبه الخواتم، وقد افلتت منه خصيلات دقيقة كالريش، على صدغيها.
تسمر بصرها عليه بحيرة وذهول، لأن الفتاة المنحوتة كانت صورة طبق الاصل عنها هي، ولكن هذا مستحيل! فياقة الثوب العالية وتسريحة الشعر تنتميان الى عصر اخر، مع ان الشبه كان مذهلاً! سألت ميريك بانفاس مبهورة:

«من تكون هذه الفتاة؟ من اين حصلت على التمثال؟».
«وجدته صدفة، في أحد الجوارير السفلية في هذا المكتب. سألت جون اذا كان لا يمانع في ان احتفظ به، فوافق. ادركت من ذلك الحين انها الفتاة الوحيدة التي سأختارها زوجة لي. كان منطقاً مجنوناً بالطبع، لانه لم يكن لدي اي امل في لقائها، او هكذا ظننت، حتى تلك الليلة في ادنبره. . .».
قصده كان واضحاً كالبلور. فخفق قلبها بشدة وهي تزيح بصرها عن الفتاة- التمثال وتلصقه بوجه ميريك، ثم تسأل:
«ظننتني اياها؟».
فأطبق بيده الحانية على يدها، وقال مؤكداً:
«عرفت فوراً انها انت، او عرفت ان جدتك تعود الى الحياة من خلالك. . . تلك الليلة، بدا جلياً انك استغربت جداً تصرفي ذاك، وكان بالفعل غريباً، لكن الرجل عندما يرى حلماً كبيراً له يتحقق، لا يتوقف عادة ليفكر بل يتصرف تلقائياً ويوحي من مشاعره. وحتى لما اخفتك، وكان من الطبيعي ان تخافي، ثم هربت، تأكدت وقتها بأني سأجدك في غلينرودن».
فهمست:
«ثم انتظرتني في شق الصخرة، وكنت ما تزال متضايقاً من شيء ما؟».
«انتظرتك هناك ولما رأيتك على الطريق، انتابني ذعر مفاجىء مما قد يحدثه ظهورك من تأثير سيء على صحة جون، ولذا بدوت حانقاً. كنت متضايقاً من نفسي اكثر، لكوني تأخرت في تدارك الموقف. ثم اتضح لي بعد ذلك، انك لا تشبهين البتة، فتاة احلامي الفكتورية المطيعة، بل كنت قطة برية شرسة، ولطالما وددت ان اضربك، وبخاصة عندما ظهر صديقك السيد ماسون. لكن بالرغم من كل ما حصل بيننا من سوء تفاهم، لم اقدر ان افلت اي فرصة كانت تتيح لي معانقتك».
القت رأسها على كتفه متنعمة بدفء حبه وقالت:
«لا تقلق يا حبيبي بشأن ثيم، فأنا ما احببته ابداً، وما اوحيت اليه ابداً باني احبه. اعتقد انه كان يتخبط حائراً بين عدة اشياء تتجاذبه، واستبعد ان يعود مرة اخرى الى غلينرودن».
واكملت باستسلام:

«منذ وقت طويل وانا احبك».
«انا احببتك قبلاً يا سو».
احاطها بحنان وتابع بصوت اقل انفعالاً:
«اعترف بأني حين سمعتك تذكرين تيم ماسون لأول مرة، حسبتك تفكرين فيه كخطيب احياناً».
فأجابت منفعلة:
«وانا حسبتك تفكر الشيء نفسه بالنسبة الى كارلوت».
فمرر اصابعه في شعرها، ثم ازاحه في رفق عن جبينها الناعم، وقال بصوت مرتج عميق:
«ما نكنه لبعضنا يا سو، هو اقوى من العواطف الدنيوية الجارفة... تزوجيني قبل عيد الميلاد، لاني ارفض ان انتظر اكثر».
«وسنقضي عيد الميلاد في غلينرودن، اليس كذلك؟».
«اجل، سنقضي عيد الميلاد في غلينرودن، ثم نسافر الى جنوب افريقيا لقضاء شهر العسل ولاعرفك الى عائلتي. هل تحبين ذلك؟».
«انني احبك يا ميريك فيندلي».
ستذهب سو الى مطلق مكان ما دام ميريك معها وبقربها... ومن ثم يعودان الى هذا البيت الرمادي العتيق وسط الجبال الشامخة. من اليوم فصاعداً، ستظل غلينرودن وطنها الصغير دائماً، هذه كانت رغبة جون، وتحقيقها سيريح روحه، واطلقت من قلبها صلاة شكر دافئة، حين قربها ميريك اليه، وكأنه قرأ افكارها...